

منسيون في التاريخ الحديث

الدكتور محمد موسى الشريف

الجزء الرابع

مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع

/ ٢٠١٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N

الناشر

مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع

المنصورة ـ ميدان المحطة ـ برج البرنسات ـ الدور السادس

محمول: ٠١٠٠٥٧٢٥٢٢٢ / ٠٠٢

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

يطلب من

مؤسسة دار القلائد

المملكة العربية السعودية ـ جدة

تليفون: ٦٨٧١٧٣١ / ٠٢ / ٠٠٩٦٦

٠٥٤٤٠١٠٢٠٢ / ٠٠٩٦٦

Email: Ummal Qura 2000 @ Yahoo. com







مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهٰذا هو **الجزء الرابع** من سلسلة «**عظماء منسيون في التاريخ الحديث**» الذين كان لهم أثر في أحداث عصرهم، والذين نسيهم أكثر الناس؛ بل أكثر العاملين والمصلحين والدعاة والمثقفين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فمن الأهداف لهٰذه السلسلة إذن، إعادة إحياء سيرهم، وإظهار عظمة أعمالهم، وجلال هممهم؛ عسى الله تعالى أن يكتب لي أجر هٰذا العمل، وأن يحصل التعريف بسيرهم بإيجاز للأجيال الناشئة الباحثة عن القدوة.

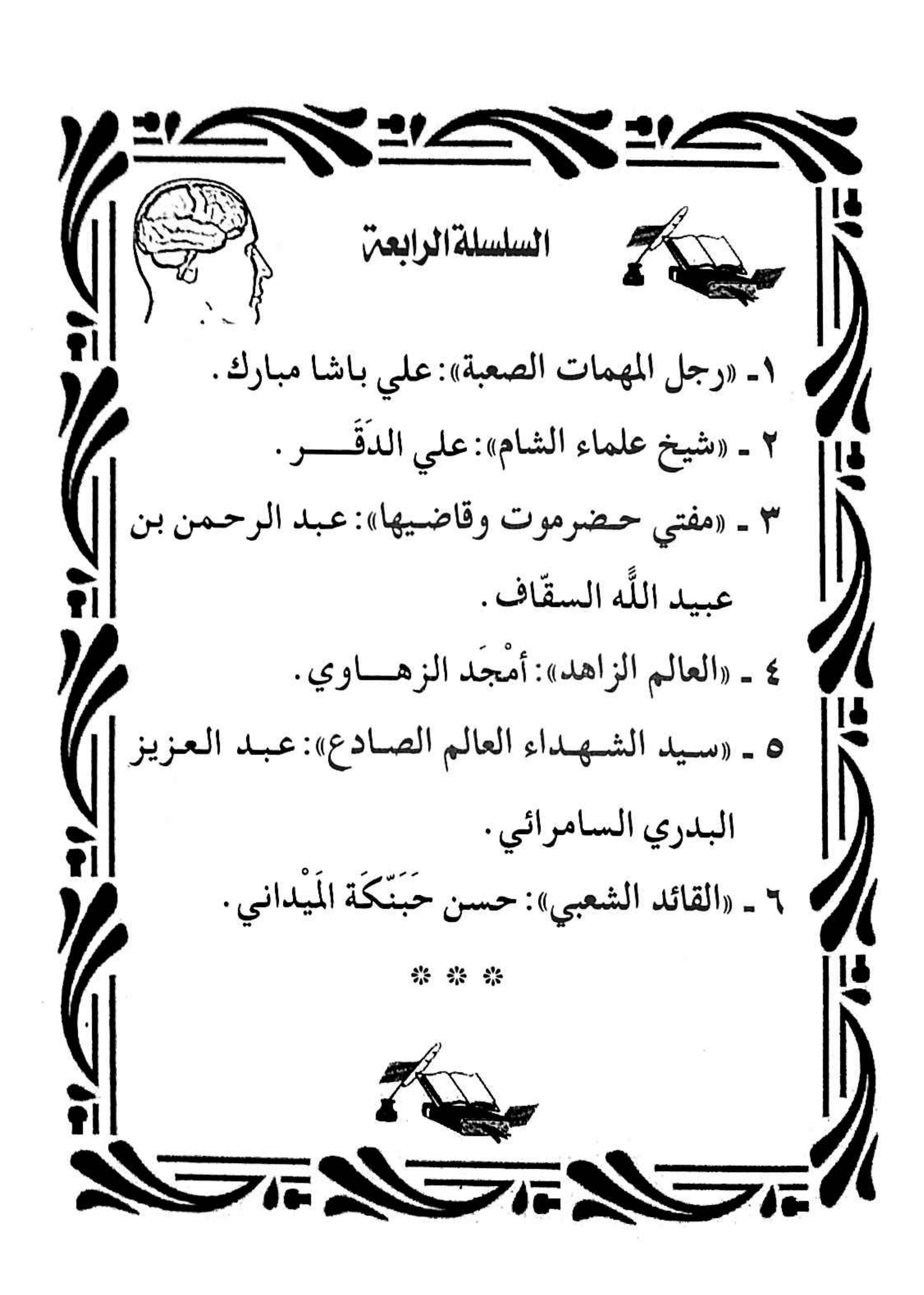
هٰذا والله أعلم وأحكم، وأجل وأعظم، وصلّ اللَّهُمَّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

كتبه
محمد موسى الشريف
البريد الإلكتروني mhmalshareef@gmail.com
الموقع على الشبكة www.altareekh
د. محمد بن موسى الشريف FACEBOOK
TWITTER: DRMOHAMMEDMH







السلسلة الرابعة

١ ـ «رجل المهمات الصعبة»: علي باشا مبارك.

٢ ـ «شيخ علماء الشام»: علي الدَقَــــر.

٣ ـ «مفتي حضرموت وقاضيها»: عبد الرحمن بن عبيد اللّٰه السقّاف.

٤ ـ «العالم الزاهد»: أمْجَد الزهـــاوي.

٥ ـ «سيد الشهداء العالم الصادع»: عبد العزيز البدري السامرائي.

٦ ـ «القائد الشعبي»: حسن حَبَنّكَة المَيْداني.

* * *


علي
باشا
مبارك
١٢٣٩ - ١٣١١هـ
١٨٢٤ - ١٨٩٣م
الجزء
١
الرابع

رجل المهمات الصعبة
علي باشا مبارك

لقد جاء «علي مبارك» في زمن صعب؛ إذ لم يكن في مصر آنذاك أسس الدولة الحديثة في جوانب كثيرة، فجاء هـٰذا الرجل الفذّ بأفكار وأعمال يعجز عنها جماعة من الناس، ولم تأت هـٰذه الأعمال من رجل ورث المجد كابراً عن كابر، وخلفاً عن سلف، ولم تأت من شخص نشأ في أسرة غنية مرفهة أو مشهورة بالعلم، إنما كان «علي مبارك» عصامياً نشأ في أسرة فقيرة من ريف مصر، وعانىٰ في سبيل تحصيل العلم أشد الشدائد وأقسىٰ المحن.

ولد الأستاذ «علي مبارك» في قرية «برمبال الجديدة» التابعة لمركز المنصورة في محافظة الدقهلية، وكانت أسرته كثيرة العدد قليلة ذات اليد، ووالده رقيق الحال يسمىٰ «مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروَجي»، كان إماماً وخطيباً وقاضياً في قريته، ورث تلك الوظائف عن آبائه، وقد فرحت القرية كلها به لأنه جاء بعد سبع بنات، وبسبب الظلم المسلط علىٰ الفلاحين آنذاك تركت العائلة القرية وتنقلت في البلاد إلىٰ أن استقرت في عرب السماعنة، وهناك حَسُن حال العائلة شيئاً ما، وأرسل «مبارك» ابنه علياً إلىٰ الكُتّاب لكن الطفل ضاق ذرعاً بسوء معاملة الشيخ، فرفض البقاء في الكُتاب، ثم أرسله أبوه إلىٰ أحد الكتبة ليعلمه فبقي معه مدة لكنه نفر منه لاستغلاله إياه وإيذائه له، فهرب منه وهام علىٰ وجهه في البلاد حتىٰ وصل إلىٰ قرية بجهة المطرية فأصابته الكوليرا، فأخذه رجل من أهل القرية وعالجه أربعين يوماً وأهله يبحثون عنه، فلما عرفوا مكانه هرب منهم لكنهم استطاعوا الوصول إليه فأرجعوه إلىٰ القرية، فأخذه والده إلىٰ كاتب المساحة ليتعلم عنده، لكنه وجده خَرِب الذمة

فنفر منه، ورجع إلىٰ أبيه الذي ألحقه بعمل لدىٰ كاتب مأمورية أبي كبير براتب خمسين قرشاً في الشهر لكن الكاتب لم يكن يُسلم له راتبه، فلما قبض الغلام حاصل أبي كبير، أمسك منه راتبه، فلما عرف ذلك المأمور حقد عليه فسجنه ووضع الحديد في رقبته، ولبث في السجن أكثر من عشرين يوماً في أحوال صعبة، ثم أُفرج عنه بوساطة اجتهد فيها أبوه حتىٰ أخرجه من السجن، وذهب به إلىٰ مأمور زراعة القطن ليعمل عنده، وهنا تغيرت حياته كلها؛ إذ إنه رأىٰ المأمور فوجده أسود حبشياً، ووجد كبار القوم يقفون بين يديه ويتقربون إليه، فعجب الغلام من ذلك، وسأل عن السبب فاهتدىٰ إلىٰ أن ذلك المأمور درس في مدرسة الجهادية بالقصر العيني، فاجتهد بكل وسيلة للالتحاق بتلك المدرسة في القاهرة، ولم تفلح توسلات أبيه وبكاؤه بين يديه لإثنائه عن ذلك، واستطاع الغلام بذكائه الفطري أن يُقنع مَن جاء من القاهرة ليختار نجباء التلاميذ الصغار ليلحقهم بمدرسة القصر العيني، أقنعه بصلاحيته للدراسة فأُخذ إلىٰ القاهرة، وقد كان عمره آنذاك اثني عشر عاماً، وذلك في سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م، ودخل المدرسة التي لم تكن مدرسة بالمعنىٰ المعروف بل هي أشبه بثكنة عسكرية، والدروس ضعيفة، والطعام لا يكاد يكفي الطفل الصغير، حتىٰ صار يمص العظم الذي يتركه الآكلون، والضرب والسبّ هو الأمر السائد في المدرسة، فمرض الغلام وأُصيب بالجرب فنقل إلىٰ المستشفىٰ وبقي فيه مدة حتىٰ جاء أبوه ليأخذه خفية فرفض لأن مَن يهرب من المدرسة يُنكل بأهله ويقبض عليهم حتىٰ يسلم الفارّ نفسه!! فعاد إلىٰ المدرسة وبقي فيها سنة، ثم نُقل إلىٰ المدرسة التجهيزية بأبي زعبل.

وأصبح الغلام - تدريجاً - مقبلاً علىٰ الدراسة بل نبغ فيها حتىٰ اختير لمدرسة المهندسخانة - مثل كلية الهندسة اليوم - ببولاق وذلك سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، فأقام بها خمس سنين وكان دائماً أول فرقته، وفي ذلك الوقت أراد «محمد

علي باشا» حاكم مصر أن يرسل أبناءه إلىٰ فرنسا للدراسة فيها، وأمر باختيار بعض الطلاب النابغين ليدرسوا مع أبنائه، فاختير «علي مبارك»، وكان ناظر المهندسخانة فرنسياً يُدعىٰ «لامبير» وكان يريد أن يستبقي «علي مبارك» ليكون معلماً في المدرسة وحاول إغراءه لكنه رفض وسافر إلىٰ فرنسا سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، وكان في البعثة اثنان من أبناء «محمد علي» واثنان من أحفاده، أحدهما اسمه «إسماعيل بن إبراهيم»، وهو «الخديوي إسماعيل» فيما بعد، ولذا سميت البعثة ببعثة الأنجال.

ومن هِمَّتِهِ العالية: أنه لما سافر إلىٰ فرنسا لم يكن يعرف الفرنسية، وطلب القائمون الفرنسيون علىٰ البعثة من الطلاب الذين يعرفون الفرنسية أن يعلموها للطلاب الذين لا يعرفونها فرفض الطلاب، فما كان من «علي مبارك» إلَّا أن تعلم الفرنسية دون معلم من كتب اقتناها في تعليم الأطفال الفرنسية، واجتهد في التعلم حتىٰ لم يكن ينام من الليل إلَّا قليلاً، واجتهد في طلب العلم حتىٰ أنه صار مقدماً بين الطلاب، وبعد سنتين تجاوز الامتحان في الشؤون العسكرية بتفوق، ثم التحق بالجيش الفرنسي في الفرقة الثالثة من المهندسين الحربيين فظل بها قرابة عام، ثم توفي «إبراهيم باشا» وتولىٰ الحكم في مصر «عباس الأول» حفيد «محمد علي»، فأرجع الطلاب إلىٰ مصر، لِما اشتُهر عنه من كراهيته تعليم المصريين حتىٰ لا تتفتح أعينهم علىٰ حقوقهم.

ولما عاد إلىٰ مصر، تقلَّب في الوظائف الرسمية والأعمال المهمة في زمن «عباس الأول»، ومَن بعده «سعيد» و«إسماعيل» و«توفيق»، فمن ذلك:

١ ـ عضوية لجنة اختيار المهندسين وإحلال الأقوياء مكان الضعفاء، وتيسير الملاحة بالنيل.

٢ ـ تنظيم المدارس الملكية وترتيب ميزانيتها، ومنها مدرسته الأولىٰ المهندسخانة،

واختيار الكتب الملائمة لها.

٣ - المشاركة في الحملة المصرية لمؤازرة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا وهي المعروفة بـ ((حرب القرم))، وذلك سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م، وقد مكث في سفره هٰذا سنتين ونصف السنة، تعلم فيها اللغة التركية، وكان مسؤولاً عن التجنيد في مدينة «طرابزون» علىٰ البحر الأسود، فأحسن القيام بمهمته حتىٰ حمد له سعيه أعيان المدينة، وأقام مستشفىٰ عسكرياً بالجهود الذاتية.

٤ - إدارة القناطر الخيرية، فأجرىٰ تعديلات في نظام الري وتحويل الماء حتىٰ وصل الماء إلىٰ مساحات شاسعة كانت محرومة منه، فكافأه «الخديوي» بثلاثمائة فدان.

٥ - إدارة السكة الحديدية، فكان يباشر العمل فيها من الظهر إلىٰ الغروب كل يوم.

٦ - إدارة نظارة الأوقاف، أي وزير الأوقاف، وقد وجدها مهملة فأحياها وضبطها وأحسن استغلال ريعها، وأنقذها من أطماع النُظّار وإهمالهم.

٧ - إنشاء دار الكتب المصرية التي سُميت آنذاك بـ «الكُتبخانة الخديوية» وذلك سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م، فأنقذ الله - تعالىٰ - بها ما لا يُحصىٰ من الكتب المهملة في المساجد والجوامع والمكتبات الخاصة، وتلك الكتب كانت نهباً للأيدي السارقة، والأَرَضة التي فتكت بالكثير منها، فسهل علىٰ الطلاب الوصول إليها والانتفاع بها.

٨ - نظارة الأشغال، وهٰذا مثل وزارة الشؤون البلدية في يومنا هٰذا، فقام بتخطيط القاهرة وتنظيمها، وفتح كثيراً من الشوارع فيها مثل شارع محمد علي وميدانه بالقلعة، وشارع الأزبكية وميدانها، وشارع عابدين وباب اللوق ولا زال تخطيطه قائماً في القاهرة إلىٰ الآن، وأضاء شوارع القاهرة

بالغاز، وبنىٰ مستشفىٰ القصر العيني، ومدرسة للطب، وعمل مجاري القاهرة، وأنشأ المذبح «السلَخانة»، وعمل الجسر بين قصر النيل والجزيرة، وأقام المنتزهات علىٰ ضفاف النيل، وفرش الطرق بالحصىٰ للحد من الغبار، وأوصل مياه النيل إلىٰ كثير من جهات القاهرة فدخل إلىٰ بيوتها، وكذلك أحدث في الإسكندرية تجديدات مهمة، وطهر الترع والمصارف، وشق ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية وكثيراً من الترع، وأقام الجسور والقناطر علىٰ النيل، وأنشأ دور الدواوين بالمحافظات والمديريات، وأصلح السجون بعد أن كانت أقبية وكهوفاً مظلمة، وبنىٰ المستشفيات بعد أن كانت في الدكاكين والاسطبلات، وشق الشوارع وغرس الأشجار علىٰ جوانبها، واجتهد في كل ذلك حتىٰ قال:

«وهٰذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أوامرها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك فكنت في مدة إحالة هٰذه الدواوين عليّ مشغولاً بالمصالح المِيريّة، وتنفيذ الأغراض الخديوية - أي الرئاسية - ليلاً ونهاراً حتىٰ لا أرىٰ وقتاً ألتفت فيه لأحوالي الخاصة بي، ولا أدخل بيتي إلَّا ليلاً، بل كنت أفكر في الليل فيما يُفعل بالنهار».

ومن أهم ما صنعه في وزارة الأشغال: أنه ألغىٰ نظام سُخرة الفلاحين، وأحل مكانه نظام المقاولين.

٩ - أشرف على حفل افتتاح قناة السويس الذي دُعي إليه ملوك وأمراء أوروبا، ثم عينه الخديوي إسماعيل ممثلاً لمصر في النزاع القائم بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس، فنجح في فض النزاع.

- **أهم أعماله:**

لكن أهم أعماله على الإطلاق: إصلاح التعليم، وقد بذل في ذلك جهداً

كبيراً حتىٰ يمكن لي أن ألقبه «أبو التعليم المصري الحديث».

وقد ظهرت جهوده واضحة في الأعمال التالية:

١ - مَدّن التعليم بعد أن كان عسكرياً داخلياً معتمداً علىٰ القسوة والسباب.

٢ - عمل لائحة للمدارس ضبطت شؤون الإدارة والطلاب بعد أن كان الأمر فوضىٰ مرسلاً بدون ضوابط وسميت لائحة رجب - نسبة لشهر رجب الذي انطلق فيه هٰذا المشروع، وذلك يوم كان المصريون والعرب يراعون الشهور العربية ويقدمونها علىٰ غيرها - وذلك في ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م، وأجرىٰ كثيراً من ريع الأوقاف الخيرية علىٰ التعليم، وقد كان يجمع بين إدارتي التعليم والأوقاف فسهُل عليه ذلك.

٣ - رفع أجور المدرسين وخدم المدارس.

٤ - جعل التعليم مجانياً للفقراء.

٥ - نظم التدريس في الكتاتيب، وقد كانت هي القاعدة العريضة للتعليم آنذاك.

٦ - أنشأ مدارس في معظم المدن وفتح مدارس للبنات.

٧ - ألف كثيراً من الكتب المدرسية، ووضع المناهج لعدد من المدارس العليا خاصة الهندسة والحربية، واشترك مع آخرين في تأليف بعض الكتب، وأنشأ مطبعتين لطباعة الكتب المدرسية.

٨ - باشر بنفسه التعليم في أوقات كثيرة حتىٰ زمن وزارته وبعدها، وكان يشرف علىٰ الطلاب بنفسه ويعلمهم كيف يلبسون وكيف يقرأون وكيف يكتبون، ويشرف علىٰ المعلمين وينصحهم، وكان - لهمته العالية - يجهد في تعليم الطلاب بكل وسيلة حتىٰ أنه كان يكتب لهم بالفحم علىٰ البلاط، ويخط لهم علىٰ التراب، ويعلمهم في الخيام؛ وذلك لقلة الوسائل

التعليمية آنذاك، وكان يعلمهم القواعد الهندسية بالعصا والحبل!!

٩ ـ أنشأ دار العلوم المشهورة اليوم بالقاهرة، وجعل لطلابها مكافأة شهرية وصلت إلىٰ مائة قرش، وكان هٰذا قَدْراً ضخماً من المال يمنح لطالب آنذاك.

١٠ ـ أنشأ الصحافة المدرسية، وأول صحيفة كانت «روضة المدارس»، وابتدأت منتصف محرم سنة ١٢٨٧هـ/ ١٧ فبراير ١٨٧٠م، وجعل «رفاعة بك رافع الطهطاوي» مشرفاً عليها، وكتب فيها بنفسه.

• **مؤلفاته:**

ألف «علي مبارك»، مؤلفات عديدة، كان أعظمها مطلقاً «الخُطط التوقيفية» في عشرين مجلداً، وصف فيها مدن مصر وقراها وآثارها وجغرافيتها وتاريخها في العصور القديمة والحديثة، وتعد إكمالاً لخطط المقريزي، وجعل الستة أجزاء الأولىٰ للقاهرة والسابع للإسكندرية، والأجزاء الأخرىٰ لسائر المدن المصرية وبلداتها وقراها.

وألّف «عَلَم الدين» في أربعة أجزاء، وهو كتاب تدور أحداثه علىٰ عالم أزهري سماه «عَلَم الدين»، ورجل انجليزي وفد إلىٰ مصر وتعلم العربية، وفيه معلومات مهمة ونوادر وبحوث.

وألف «تذكرة المهندسين»، و«تقريب الهندسة»، و«طريق الهجاء والتمرين»، و«تنوير الأفهام في تَغَذّي الأجسام»، و«نخبة الفكر في تدبير نيل مصر»، و«آثار الإسلام في المدنية والعمران» وهو آخر كتبه، و«الميزان في الأقيسة والمكاييل والأوزان»، و«حقائق الأخبار في أوصاف البحار»، و«سوق الجيوش»، و«الاستحكامات العسكرية»، واشترك في ترجمة كتاب «تاريخ العرب» للمؤلف الفرنسي «سيد يو» . . . وغير ذلك.

• **مواقف في حياته:**

• شُغل عن والدته فلم يرها ولم يسمع صوتها مدة أربع عشرة سنة، منذ أُخذ إلىٰ مدرسة القصر العيني إلىٰ أن عاد من فرنسا واشتغل بالمهام العديدة التي كُلف بها، فلا تسأل عن اللقاء وما جرىٰ فيه من بث العواطف والأشواق.

• كان «علي مبارك» وهو طالب، يستصعب جداً مادتي الهندسة والحساب «الرياضيات»، فإذا به ينبغ فيهما نبوغاً عجيباً سواء كان نبوغاً علمياً أو عملياً.

• **ومن همته أنه:** كان يبيت غالب أيامه جائعاً وهو طالب في طفولته، بل كان يمص العظام التي أكلها الآخرون، ثم إذا به يصبح في شبابه وكهولته وزيراً لعدد من الوزارات.

• عانىٰ كثيراً من الحسد والوشايات حتىٰ عُزل مراراً من كثير من وظائفه، ثم يعود إليها ثم يُعزل، لكنه بقي ثابتاً علىٰ شيء واحد وهدف محدد وهو: خدمة الناس وإصلاح شؤونهم.

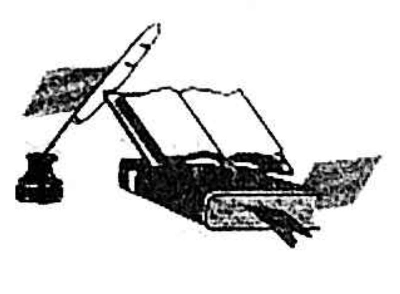
• شارك في الجمعية العمومية التي عقدت من أربعمائة من أعيان المصريين للنظر في أمر الحملة الإنجليزية الهمجية علىٰ مصر سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م، ثم كان رئيساً للجنة من ستة أشخاص سافرت إلىٰ الإسكندرية للاتصال بـ «الخديوي توفيق» الذي كان ممالئاً للإنجليز ضد الثورة العُرابية، وكان من غرض اللجنة عقد مصالحة بين الخديوي والضابط الثائر «أحمد عرابي»، لكن الأمور لم تَسِر علىٰ ما يرام.

• بقي «علي مبارك» ناظراً للمعارف «وزيراً» حتىٰ سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م، فلما استقالت وزارة «رياض باشا» عاد إلىٰ بلده لتفقد أراضيه وإصلاحها، لكن القدر لم يُمهله فمرض في مثانته وعاد إلىٰ القاهرة فاشتد عليه المرض حتىٰ توفي سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م بمنزله بالحلمية، رحمه الله

تعالىٰ وأعلىٰ درجته.

• وهكذا كان «علي مبارك» معلماً ووزيراً للتعليم، ومهندساً بارعاً بُني بتوجيهه وإشرافه كل المعالم الحضارية - تقريباً - في مصر الحديثة، وهو المؤلف البارع الذي سَهّل علىٰ الطلاب كثيراً من العلوم، وهو المصلح الاجتماعي الذي رفع كثيراً من المظالم عن الفلاحين، وهو الإداري الحازم الذي وضع من النظم واللوائح ما أصلح به شأن الأوقاف والتعليم، فشخصيته متعددة المواهب، وأعماله كثيرة لكنه أضحىٰ من العظماء المنسيين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *






علي
الدقَــر
١٢٩٤ - ١٣٦٢هـ
١٨٧٧ - ١٩٤٣م
الجزء
٢
الرابع

شيخ علماء الشام
علي الدَّقَر

إن تعهد طالب علم واحد حتىٰ يصبح شيخاً، والعناية به، وتقويمه، وإعداده للوعظ والإفتاء لهو أمر من أشق الأمور وأصعبها، فكيف إذا كان العدد مئات وليس واحداً أو اثنين أو ثلاثة؟ هٰذا هو الذي حققه في بلاد الشام مصلحها وعالمها الشيخ الشريف «محمد علي بن عبد الغني الدقر الحسيني» الدمشقي، رحمه الله تعالىٰ.

ولد بدمشق سنة ١٢٩٤هـ في أسرة دمشقية عريقة، وكان أبوه صالحاً محسناً جواداً، وأمه كذلك، وتعلم في الكُتّاب القراءة والكتابة ـ كعادة أهل عصره ـ وتعلم فيه شيئاً من كتاب الله تعالىٰ، ثم درس في مدرسة الشيخ «عيد السفرجلاني» بضع سنين، درس فيها علوم الشريعة والعربية، ولازم الشيخ «محمد القاسمي»، ثم محدث الشام الأكبر الشيخ «بدر الدين الحسني»، وكان أحبَّ تلاميذه إليه، وقرأ عليه الكتب الخمسة: البخاري ومسلماً وأبا داود والترمذي والنسائي، ودرس علىٰ الشيخ العالم «أمين سويد»، وبرع حتىٰ صار فقيهاً معتبراً.

- **صنيعه في الوعظ:**

كان صاحب هِمَّة في التعليم والوعظ، واشتغل أول أمره بالتدريس في مسجد سنان باشا في دمشق، ثم صار يدور علىٰ مساجد دمشق وغيرها من مدن بلاد الشام، وكان عظيم التأثير في النفوس فالتقت القلوب علىٰ محبته، وازدحم علىٰ دروسه العلمية والوعظية فئات من الشعب.

قال الشيخ «علي الطنطاوي» واصفاً وعظ الشيخ «علي الدقر» في مسجده الذي «يمتلئ كله، ويقف الناس على أبوابه وأمام نوافذه: لم يكن في الدرس علم غزير، ولكن كان فيه شيء لا يجده سامعه عند ذوي العلم الغزير، فيه الموعظة التي تخرج من القلب لتقع في القلب، فتحرك فيه خامد الشعور، وتثير فيه كامن الإيمان، فيه يملأ بالدموع المآقي، ويُبكي من الخشوع العيون، فيه ما يقيم ويقعد، ويلين أفئدة كانت أشدَّ من الصخر، ويستخلص من أيدي الشيطان نفوساً كان قد تملّكها وتحكّم فيها الشيطان. فيه ما يشعره حاضره أنه انتقل من هذه الدنيا، إلى مجالس الجنان.

فيه ما لا أستطيع أن أعرّف القارئين به؛ لأنه شيء يُرى ولا يوصف، ويذاق ولا يُعرف، وكان الشيخ يُسأل: من أين يأتي بهذا الكلام الذي يلقيه على الناس؟ ومن أيِّ كتاب ينقله؟ فما كان يجيب، ولو أجاب لقال: إنه ينقله من الصلاة في ظلمات الليالي، ومن المناجاة في هدآت الأسحار، ومن حلاوة الإيمان التي يذوقها في ساعات الخلوة بالله، والتوجّه إليه، والقيام بين يديه...

إنه إنْ وعظ، لم يأت بألفاظ حلوة تقرع الأذن ثم لا تتجاوزها، بل بمعان تصل إلى القلوب قبل أن تصل الألفاظ إلى الآذان.

عندما يقرر الدرس ما كان يقتصر على عبارة الكتاب الذي يدرّسه، بل كان ينطلق لسانه بكلمات ترقق القلوب، وتذكّر بالآخرة، كان فيها من روعة التذكير، وشدة التأثير ما ليس له نظير.

كان يخشع هو، فيخشع السامعون، ويبكي فيبكون.

وكان يرى إقبال الناس عليه فيعجب ويتساءل: نحن نحن، ما تبدّل فينا شيء، فما الداعي لهذا الإقبال والازدحام؟

ويعجب تلاميذه وإخوانه من كلامه هذا، ولسان حالهم يقول: إنه

الإخلاص، إنه الورع والتقوىٰ، إنه صفاء القلب والعقل والنفس، إنه حبّ الله وحبّ رسوله ﷺ الذي ملك عليه أقطار قلبه وعقله، إنه الخشية التي جعلتك تقول: إن كل علم لا يورث خشية لا يزيد صاحبه إلَّا بُعْداً من الله تعالىٰ، فوازنتَ بين العلم والعمل، وكنتَ مخبتاً لله، زاهداً، متقشفاً، وقد أورثك هـٰذا وسواه إقبال الناس عليك، وازدحامهم علىٰ دروسك، وتأثرهم بمواعظك، وامتثالهم لأوامرك وتعليماتك المستمدّة من كتاب الله وسنّة رسوله، البعيدة عن الهوىٰ، العاملة علىٰ طرد الخرافات والبدع من حياة المبتدعين وأتباعهم الجهلة، حتىٰ لا يفسدوا علىٰ الناس دينهم وعقيدتهم».

• **صنيعه في التعليم وإعداد العلماء:**

نظر الشيخ فوجد أن بلاده تحت حكم الفرنسيين الفجرة، وأن مناهج التعليم بعيدة عن المنهج الإسلامي، فأنشأ «الجمعية الغرّاء» سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، وأتىٰ بالطلاب من حوران والأردن وبعض مدن وقرىٰ دمشق للتعلم في مدارس الجمعية التي أنشأها له التجار الذين أحبوه ووثقوا به، وعاونه في ذلك بعض العلماء كالشيخ «هاشم الخطيب» وكان تحت نظر محدث الشام «بدر الدين الحسني»، فصار الطلاب يتعلمون في تلك المدارس العلوم الشرعية واللغوية، حتىٰ نشأ جيل من طلبة العلم والعلماء ليس للشام بكثرتهم وتفوقهم عهد في تاريخها الحديث، حتىٰ صار الشيخ «علي الدقر» يُعد صاحب أكبر نهضة علمية في بلاد الشام في العصر الحديث.

وكان من مزايا هذه المدارس: أنها تعلّم علوم الدين واللغة والعلوم الأخرىٰ الدنيوية، وأنها تعلم الفقراء مجاناً، بل توفر لهم الطعام والكساء والمبيت.

وبلغ عدد مدارس الجمعية ثلاث مدارس ابتدائية للذكور وثنتين للإناث، أما المدارس الثانوية فهي ست للذكور والإناث، وفي كل مدرسة من تلك المدارس مئات الطلاب، وخرجت تلك المدارس آلاف الطلاب والطالبات،

وبهـٰذا حصلت النهضة العلمية الشاملة في بلاد الشام على يد هـٰذا الشيخ المبارك، رحمه الله تعالى.

قال الشيخ «علي الطنطاوي» عن عمل «الجمعية الغراء» والمدارس التابعة لها:

«لقد أثمرت الجمعية الغراء خيراً كثيراً، وخَرّجت علماء ودعاة، وأحيا بها الله أرض حوران والبلقاء - الأردن - بل خَرّجت مئات الدعاة والعلماء والخطباء والأدباء والوعاظ والمعلمين والمدرسين وأساتذة الجامعات والمفكرين» ثم ذكر منهم الشيخ العالم «حسن حبنّكة الميداني»، والشيخ «عبد الوهاب دبس وزيت» مفتي الأحناف بدمشق، والشيخ «نايف العباس» العلامة في التاريخ والفرائض، والشيخ «عبد الكريم الرفاعي» المربي المعروف، والدكتور «محمد أديب الصالح»، والدكتور «محمد خير عرقسوسي»، وقد ذكر آخرين اكتفيت منهم بهـٰؤلاء.

وهـٰذا عمل جليل في مدة ضعف فيها العلم الشرعي بسبب الاحتلال الأجنبي الكافر لبلاد الشام، ومن قبله كانت الدولة العثمانية في زمن احتضارها فلم تكن تُعنى بالعلوم الشرعية العناية الكافية.

ثم قال الشيخ «علي الطنطاوي» - رحمه اللّه تعالى:

«وأما مئات العلماء الذين تخرجوا في معاهد «الجمعية الغراء» فأكثر من أن يُحصوا، وهم منتشرون في المدن والأرياف السورية والأردنية والفلسطينية والتركية واللبنانية، تخرجوا في معاهد «الجمعية الغراء» ومدارسها، وملأوا الآفاق، منذ أوائل القرن الماضي حتى يوم الناس هـٰذا».

وكان الشيخ يرسل مئات من الطلاب إلى البلدات والقرى لتعليم الناس أمور دينهم خاصة في رمضان.

ولم تكتف الجمعية بالتعليم، بل كانت مقراتها ملتقيات لرجال السياسة

ووجهاء دمشق وعلمائها، وكانت قوائم المرشحين للانتخابات يُتفق عليها فيها.

وكانت مدارسه حرباً على الفساد والبدع والخرافات، وهي التي تصدت للمنفِّرين المنصرين، وكانت حرباً على التعصب المذهبي، وقد كاد الحساد للجمعية، واتهموها وشيخها بتهم كثيرة، لكن الله نجاه ـ جل جلاله ـ ونجى جمعيته.

• صفات الشيخ وشمائله:

قد كان للشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ صفات وخصائص وشمائل مكنته من صنع هـذا الذي صنعه، وذلك بعد توفيق الله تعالى له، **فمن ذلك:**

١ ـ الإخلاص:

وهو إكسير الأعمال الذي يقلبها ذهباً، وقد كان الشيخ على قدر كبير من الإخلاص ـ أحسبه كذلك والله حسيبه ـ ولما سئل عن سبب تأثيره الكبير في سامعيه ذكر ـ بعد تمنّع ـ لبعض أحبابه أنه يقوم كل ليلة في السحر يقرأ شيئاً من كتاب الله تعالى بنية أن يغير الله حال سامعيه ويرزقهم الهداية، وهكذا يفعل الإخلاص بأهله.

٢ ـ حسن الصلة بالله تعالى:

قد كان الشيخ حسن الصلة بالله تعالى ـ أحسبه كذلك والله حسيبه ـ فقد كان ذا صلاح وتعبد، وإذا جاء رمضان أوقف الدروس وانصرف إلى العبادة وتلاوة القرآن معتكفاً هو وطلابه في المسجد، وهـذه هي سُنَّة رسول الله ﷺ وسيرته كلها دالَّة على هـذا الأمر الجليل.

٣ ـ الورع:

كان للشيخ راتب من الأوقاف، لكنه لم يكن يأخذ منه شيئاً بل يصرفه على

الفقراء والمساكين من طلابه.

٤ ـ الجهاد:

إضافة إلىٰ جهاد الشيخ العلمي في قضاء ساعات طويلة كل يوم في التربية والتعليم والوعظ فقد شارك في جهاد الفرنسيين بعد أن احتلوا سورية عقب معركة ميسلون سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م، وظنوا أن الأمور استتبت لهم ففاجأهم أهل الشام بثورة بعدها كان المحرض عليها هم العلماء، وعلىٰ الأخص الشيخ «بدر الدين الحسني» والشيخ «علي الدقر» والشيخ «هاشم الخطيب»، فقد ارتحلوا سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م في رحلة طويلة شملت مدن الشام وقراه من دمشق إلىٰ دُوما ثم النبك فحمص وحماة وحلب، فكانوا كلما وصلوا إلىٰ بلدة أو قرية استقبلوا أحسن استقبال، وخرج أهلها عن بكرة أبيهم لاستقبالهم ثم قصدوا الجامع فتكلموا فيه ووعظوا وحَمّسوا، وأثاروا العزة في النفوس، وحرضوا علىٰ الجهاد فكانت هـٰذه الرحلة هي العامل المباشر لقيام الثورة السورية بعد ذلك علىٰ الفرنسيين المحتلين كما جاء في التقرير الرسمي لمندوب المفوض الفرنسي ونشرته جريدة الأحرار في بيروت، وهكذا هم المشايخ، وهـٰذا هو تأثيرهم إن قاموا بما أوجب الله عليهم القيام به.

وكان مما قاله الشيخ «علي الدقر» في مسجد السنانية في دمشق للمصلين محرضاً على الجهاد:

يا إخواننا: اللص دخل الدار، وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء: دينكم، ومالكم، وعرضكم.

فقال الناس: من هو هـٰذا اللص يا شيخنا؟

فقال: إنه فرنسا !!

وقد عرف الفرنسيون، أثر الشيخ «علي الدقر» في إشعال الثورة وطرد

الفرنسيين من الشام بعد ذلك، فأحرقوا مقر «الجمعية الغراء» و«جامع تِنْكِزْ» انتقاماً من الشيخ وتلاميذه، لكن الجمعية أعادت بناء المقر والمسجد على طراز حسن.

٥ ـ الجود:

كان والداه من أهل الجود والكرم فورث عنهما هـٰذا الخلق الكريم، وورث عنهما مزرعتين في المزة وداريّا، فكان الفقراء والمحتاجون يؤمونهما، فيأخذ كل واحد منهم ما يحتاجه منهما من دون استئذان.

وعندما يمد الموائد كان يفرح بازدحام المساكين عليها.

وكان الفقراء يزورونه في بيته فيخرجون ومعهم أكياس الحنطة والدقيق والسكر والزبيب والعدس والأرز والشاي والسمن والزيت.

وفي أيام الحرب العالمية الأولى حصلت المجاعة، فكان الشيخ ينفق إنفاق مَن لا يخشى الفقر.

٦ ـ الشعور بحال المسلمين:

وهـٰذه الصفة هي التي دفعته دفعاً لعمل شيء للمسلمين ينفعهم، ومن ثَم أنشأ «الجمعية الغراء» لتكوين العلماء العاملين الذين لا تسعفهم أحوالهم وأوضاعهم على طلب العلم، فخرج منها علماء كان لهم أثرهم في مدنهم وبلداتهم وقراهم.

وكان يقول إذا رأى طالباً بدون جوربين في البرد: إني أشعر بالبرد في قلبي!!

وفي جانب الجهاد من حياته الذي ذكرته من قبل، يظهر عظيم شعوره بأحوال المسلمين والاهتمام بشأنهم.

٧ـ شجاعته وقوته:

لم يكن للجمعية مقر رسمي إلَّا المقر الذي اتخذته في أول مدرسة أسستها، وفي سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م استولت الجمعية علىٰ «مدرسة جامع تِنْكز» في قلب دمشق في شارع النصر فصار مقراً لها، وبنت في رحاب المسجد «معهد العلوم الشرعية» الذي تخرج فيه عدد كبير من العلماء، و«ثانوية السعادة».

وقصة استيلاء الجمعية علىٰ مدرسة المسجد، تدل علىٰ شجاعة الشيخ وقوته، فقد كانت تلك المدرسة «مدرسة صف الضباط» مدرسة عسكرية للفرنسيين، فتحين الشيخ فرصة غياب الطلاب «ضباط الصف» في رحلة خارج دمشق، فأوعز إلىٰ طلابه أن يحتلوها بخطة محكمة نفذت بعد صلاة العشاء، حيث جمع الطلاب كتبهم ومتعلقاتهم واقتحموا المدرسة واحتلوها، ووضعوا الفرنسيين تحت الأمر الواقع خاصة أن الشيخ «بدر الدين الحسني» ساعده، وقد كان صاحب هيبة عظيمة، وقبول عند الحكام، وهكذا فليكن المشايخ شجاعة وقوة وإقداماً.

● **من اللطائف في حياة الشيخ:**

كان والد الشيخ «علي الدقر» يشفق علىٰ ابنه من شدة محبته للعلم وتعلقه به، ويتمنىٰ لو أنه استمتع بحياته وبالمال الوفير الذي لوالده، وكان الوالد يشكو لصديق له يعمل بقّالاً، وشاء الله ـ تعالىٰ ـ أن يمد في عمر البقّال حتىٰ رأىٰ ما وصل إليه الشيخ «علي» من منزلة علمية رفيعة والتفاف طلبة العلم حوله، وكان يراه من بقالته حيث المسجد قريب منها، فيهتف بأعلىٰ صوته: أين أنت يا أبا صادق ـ وهـٰذه كنية والد الشيخ «علي» ـ لترىٰ العز الحقيقي لابنك الشيخ «علي».

• من المواقف العجيبة في حياته:

حكىٰ الشيخ المربي «عبد الكريم الرفاعي» أنه ذهب يوماً إلىٰ شيخه الشيخ بدر الدين الحسني المحدث من أجل الدرس، وكان قد درس علىٰ يديه ١٧ عاماً، فلما وصل إليه بادره الشيخ بقوله: افتح كتاب كذا صفحة كذا ففعل ثم أمره بوضع علامة علىٰ تلك الصفحة، ثم أمره بفتح كتاب آخر وفِعْلِ الشيء نفسه حتىٰ اجتمعت مجموعة من الكتب، ثم أمره أن يذهب بها إلىٰ الشيخ «علي الدقر»، فلما جاءه وأعطاه الكتب صار الشيخ ينظر في موقع العلامة من كل كتاب وتدمع عيناه، فسأله الشيخ «عبد الكريم»، فقال له: قد جاءتني أسئلة من لبنان صعبة فقلت في نفسي: ليس عندي وقت للبحث عن إجاباتها، وأخرج له الأسئلة، ثم قال له: إن إجاباتها كلها مُعَلّم عليها في الكتب التي أرسلها الشيخ «بدر الدين»، وهٰذه كرامة باهرة للشيخ «بدر الدين»؛ حيث لم يطلعه الشيخ «علي» علىٰ الأسئلة!!

• ومن المواقف الجليلة: أنه أتاه أحد الأشخاص يوماً ممن له علاقة بالمحتل الفرنسي بِلِيرَاتٍ ذهبية أعطاها إياها الفرنسيين ليوصلها إلىٰ الشيخ، فلما رآها الشيخ تألم وتأثر حتىٰ نزل الدم من أنفه، وقال: أريد نجاتكم وتريدون ذبحي، ورد المال فلم يقبل منه شيئاً.

وكذلك قال الشيخ «عبد الكريم الرفاعي»: إنَّ أمه أتت به إلىٰ الشيخ «علي الدقر»؛ ليطلب عنده العلم في سن الثالثة عشرة، وكان يمشي علىٰ عكازين فصار يجلس عند كرسي الشيخ ويقول في نفسه: هٰذا مكان مبارك فلعلي أُشفىٰ بالجلوس فيه، فلما انقضت بضعة دروس رجع الشيخ «عبد الكريم» إلىٰ أمه بدون عكازين، وشفاه الله تعالىٰ.

• **من المقولات التي أثنت على الشيخ:**

قال عنه تلميذه الشيخ المشهور «علي الطنطاوي»، رحمهما الله تعالى:

«الرجل الذي هز دمشق من أربعين سنة هزة لم تعرف مثلها من مائتي سنة، وصرخ في أرجائها صرخة الإيمان، فتجاوبت أصداؤها في أقطار الشام، واستجاب لها الناس يعودون إلىٰ دين الله أفواجاً، يبتدرون المساجد، ويسبقون إلىٰ حلقاتها».

وقال عنه أيضاً:

«وهو علامة الشام، بل هو في الشام علم الأعلام، أُعطي من التوفيق في العمل، والعمق في الأثر ما لم يُعط مثله الشيخ «بدر الدين» ولا غيره من مشايخ الشام في تلك الأيام».

• **أولاده:**

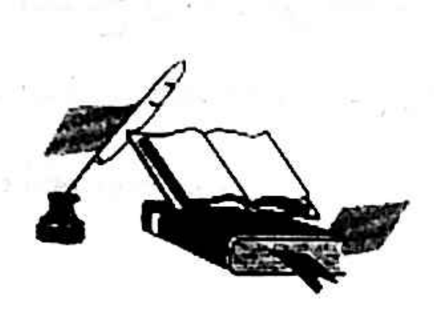
كان له ولدان عالمان نجيبان هما: الشيخ «عبد الغني الدَّقَر» صاحب «معجم النحو»، والشيخ أحمد الدقر.

• **وفاته:**

توفي الشيخ في دمشق سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م، وصُلِّي عليه في الجامع الأموي، ودفن في مقبرة الباب الصغير، رحمه الله وإيَّانا.

ورأس الجمعية من بعده ولده الشيخ أحمد، ثم بعد وفاته رأسها ولده الآخر الشيخ «عبد الغني النحوي» المعروف، رحمة الله عليهم جميعاً.

***






عبد الرحمن
ابن
عبيد الله
السقّاف
١٣٠٠ - ١٣٧٥ هـ
١٨٨٢ - ١٩٥٥ م
الجزء
٣
الرابع

مفتي حضرموت وقاضيها
عبد الرحمن بن عبيد اللّه السقّاف

هو عالم من حضرموت، تلك البلاد النائية البعيدة التي ظلت طويلاً منعزلة عن سائر العالم الإسلامي، علىٰ أنه كان لعلماء وتجار تلك البلاد آثار جليلة رائعة في الهند الكبرىٰ وفي بلاد الملايو (إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة) وبرز منهم علىٰ مدار التاريخ الإسلامي علماء كان لهم أثر كبير في ثقافة الإسلام وحضارته، وظهر منهم مجاهدون كان لهم أثر رائع في فتوح البلدان ونشر الإسلام وضياء القرآن، ومع كل ذلك ظل البلد منعزلاً عن سائر بلدان الإسلام ردحاً طويلاً من الزمان، وهـٰذا من مفارقات الزمان العجيبة.

وقد زادت عزلة حضرموت في القرون الأخيرة حتىٰ أصبحت بعيدة عن هموم المسلمين في الأقطار الإسلامية الرئيسة، غير مشاركة في الأحداث العظيمة التي تنزل بها.

وظلت حضرموت هكذا إلىٰ القرن الفائت، حيث شملتها اليقظة والنهضة التي شملت أكثر بلاد المسلمين، وبرز منها رجال عظماء كان لهم مشاركة جيدة في الأحداث المحلية والإقليمية، ومن هـٰؤلاء: الشيخ العالم مفتي حضرموت «عبد الرحمـٰن بن عبيد الله السقاف».

ولد في قرية «عَلَمْ بدر» من أعمال سيؤون ـ بلدة بحضرموت قديمة وهي اليوم مدينة عامرة ـ سنة ١٣٠٠/ ١٨٨٢، من أسرة علمية علوية عريقة، ينتهي نسبها إلىٰ «أحمد بن عيسىٰ المهاجر الحسيني»، وهو الذي قدم إلىٰ حضرموت من العراق.

وكان والده من العلماء الصالحين العابدين، وتولىٰ تعليم ولده بنفسه، وكان يُسَرِّب إليه أولاداً ارتضىٰ أخلاقهم ليلعبوا معه، وكان يرقب أخلاقهم وأحوالهم وربما شاركهم في شيء من لعبهم ولهوهم دقيقة أو دقيقتين تطييباً لهم، فنشأ المترجم له علىٰ الخير والدين والصلاح، واجتهد في طلب العلوم وبَزّ فيها أقرانه، واشتهر حتىٰ صار عالم حضرموت ومفتيها وقاضيها، وفقيهها علىٰ مذهب الإمام الشافعي.

• طريقته في الإصلاح:

يُعَدّ الشيخ من رواد الإصلاح الديني والثقافي والفكري في حضرموت، وممن جهروا بآراء قوية في بيئة غير مساعدة، فمما ذهب إليه:

١ ـ إنكاره على المبتدعة وأهل الشطح من الصوفية:

وهٰذا منه جرأة عظيمة في بيئة غلب عليها التصوف، وهو نفسه يميل إلىٰ التصوف لكن إلىٰ المعتدل منه غير الشاطح ولا الغالي، ومن صنيعه في هٰذا الباب: وصفه لهٰؤلاء بأنهم عُشاق الخرافات، مغرورون، هواة الكرامات، الخرافيون، الجهلة حتىٰ قال بعد أن ذكر بعض الشناعات عن بعض أولئك:

«طالما أنكرت مثل هٰذه الأضاليل التي لها يتذمر الإسلام، وتنتكس الأعلام، وتَكِلُّ عن عَدٍّ شرها الأقلام فما حصلت إلَّا علىٰ الملام، وذلك هو الذي استغرق جهدهم في تشويه سمعتي، والتمضمض بعرضي، والتقوّل عليّ والسعاية بي لولا وقاية الله».

وقال أيضاً:

«وأما إنكاري علىٰ القبوريين والمغرورين فهو الذي ذهب بأكثر مصالحي المادية ولم يترك لي من صديق، وقد دخلت فيه دون العشرين وهأنذا أَقْرف فيه علىٰ السبعين لم أَحِدْ عن مبدئي قيد شعرة، ولم ألتفت عنه يمنة ولا يَسْرة، بغير

مساعد ولا معين، ولكني بالله أستعين، وأسأله الثبات إلىٰ الممات».

وقد رد كثيراً من الحكايات الغريبة والكرامات المدعاة، وفَنَّدَها وأظهر عوارها، لذلك رماه كثير من علماء عصره عن قوس واحدة وعادوه.

٢ ـ محاولة إصلاح آل البيت في حضرموت وغيرها:

وكان معلماً بارزاً في حياة الشيخ، فكثيراً ما توجه إليهم بالنقد، وطالبهم بالإصلاح، فمن ذلك:

• لما قامت الفتنة بين العلويين والإرشاديين في جاوه بأندونيسيا طلب منه بعض الناس تأليف رد علىٰ الإرشاديين، فقال لهم:

«أَفْيَدُ من ذلك أن تصلحوا أنفسكم؛ فإن الخطب بينكم أعظم منه بينكم وبين غيركم، وأعداؤكم من أنفسكم أشد ممن سواهم، ولا سبيل إلَّا بحفظ الشريعة التي لا يضيع الله من احتفظ بها، وأن تأخذوا علىٰ يد المخالف منكم وتردوه إلىٰ الطريق، فإذا قمتم بذلك فقد كُفيتم كل مؤونة، وحصلت لكم كل معونة، وإلا فأنفسكم لوموا، وعليها فارجعوا، وإنا لم نؤمر بالسّباب ولا بتقطيع الأسباب».

• ومن ذلك أيضاً: قوله شعراً يطلب من علماء آل البيت وصلحائهم، التحرك لنصرة الدين:

إلامَ وأنتم يا بني المصطفى الراسُ ... تنامون حين يعظم الخطب والباسُ

بمن غيركم ـ يا مظهر الحق والهدى ... إذا لم تذبوا عنهما ـ يهتدي الناسُ

وقد نَجَمت في قُطْوكم حيث إنكم ... سكتّم ضلالات تزيد وأرجاسُ

إلىٰ أن قال:

هلموا فإن الشر أضرم ناره ... أليس لكم ـ أحياكم اللّه ـ إحساسُ

ألستم أُباة الضيم من آل هاشم ... بأهلكمُ انجابت من الكفر أغلاسُ

وقال فيهم أيضاً:

في حضرموتَ رجال منهم انحرفوا — عن الطريق فجَّروا للأنام بَلا

إلى أن قال:

لهذه المحنة الأعراض والعِللا — وكم نصحت وكم فصَّلت في خطبي

لا يهتدون إلى نحو النجا سُبلا — لكن بهم صمم عن كل صالحة

٣ـ توجعه من تخلف حضرموت ومطالبته بإصلاحها:

وقد كثر هٰذا التوجع في كلامه شعراً ونثراً، فمما قاله:

تقدمت البلاد فويحَ قومي — متى يتقدم البلد الأخير

يعز عليَّ أنا في جمود — يموت به التيقظ والشعور

وأن العالمين بكل أرض — يسيرون الأمام ولا نسير

أرى الوطن العزيز يزيد نقصاً — وباعي عن تداركه قصير

وقال يحث الدولة العثمانية على فعل شيء لوطنه:

كل البلاد إلى شَأْو العلى نهضت — كل البلاد إلى شَأْو العلى نهضت

يا آل عثمان هيا انقذوه وقد — يا آل عثمان هيا انقذوه وقد

٤ـ الإصلاح السياسي:

كان للشيخ «السقّاف» مشاركة جيدة في العمل السياسي، وهٰذا من وظائف العالم الأساسية؛ إذ إن أولو الأمر في البلاد الإسلامية هم العلماء والحكام ـ كما بين ذلك العلماء ـ وقد عمل الشيخ على إصلاح بلاده سياسياً، وظهر هٰذا في الآتي:

١ ـ حفاظه على الولاء للدولة العثمانية والبراء من الإنكليز:

كان الإنجليز في زمن الشيخ قد عقدوا عدة معاهدات حماية مع سلاطين

حضرموت، فكان الشيخ يتألم لهـٰذا، وكان يحب أن تتدخل الدولة العثمانية لكن هيهات فقد بلغت من الضعف في زمانه مبلغاً لا يمكن معه نصرة المسلمين في تلك الديار البعيدة عنها، وفي ذلك يقول «السقَّاف»:

يا رب وانصر جيوش الترك دولتنا ... وامـلأ قلوب العدا بالخوف والوجل

واحم الشريعة في شبه الجزيرة ... بالمولى الإمام من الآفات والعلل

ويعني بالإمام: إمام اليمن يحيىٰ حميد الدين، وكان «السقَّاف» قد بايعه، وذهب إليه في صنعاء فاستضافه الإمام عنده، وأتاح له مكتبته العامرة فاستفاد منها أيما استفادة.

• وكان يعيب علىٰ «الشريف حسين» ـ علىٰ ما بينهما من لُحمة النسب ـ تواطأه مع الإنجليز ضد الأتراك.

وقال مخاطباً الخليفة العثماني:

فالجور في قطرنا طالت إقامته ... والبغيَ نعْمه في أيامه السودِ

يا للشريعة بالأغراض قد صُبغت ... والعدل أصبح فينا جِدُّ مؤود

يا للعلوم امّحت فينا معالمها ... يا للصواب كمثل الغول مفقودِ

عارٌ عليكم وفيكم نجدة ولنا ... بكم لعمري اتصالٌ غير مجحودِ

نبيت ندعو لكم من فَرْط رغبتنا ... في كل ليل لدى السالين مرقودِ

• وقد وصلته رسالة من قائد الجيوش العثمانية بـ «لَحْج» سعيد باشا، يطلب منه اعتراف سلاطين حضرموت بأنهم تبع للدولة العثمانية، وذلك سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م، فما زال بالسلطان «الكثيري» والسلطان «القعيطي» حتىٰ وقّعا علىٰ وثيقة تفيد ذلك، وهـٰذه الوثيقة استاء منها الإنجليز حتىٰ جعلوا الأموال الطائلة لمن يأتي بالشيخ «السقَّاف» حياً أو ميتاً.

• وقد أرسل الشيخ «السقَّاف» قصيدة من نظمه فيها الولاء للدولة العثمانية

إلىٰ قائدها «سعيد باشا» سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م ، ومنها هـٰذان البيتان :

أتانا بأن الترك أبدوا تحنناً   علينا ومنهم يرتجي الود والعطفُ
وما زلت منذ نيطت برأسي عمامتي   وودي لهم حَبْسٌ وشكري لهم وقفُ

وسعىٰ الشيخ «السَّقّاف» في إقناع الأمراء والأعيان بالتوقيع علىٰ القصيدة لتعميق ولائهم للدولة العثمانية وإقرارهم بتبعيتهم لها ، وذلك بطلب من «سعيد باشا» لما وصلته القصيدة ، فما زال الشيخ «السَّقّاف» يقنع الكبراء بالتوقيع عليها حتىٰ اجتمع له عليها توقيعات كثيرة ، وقد جرت له حادثة جليلة مع أحد زعماء حضرموت وهو «عبد الله بن عوض بن عبدات» ؛ إذ اجتمع به وطلب منه التوقيع علىٰ القصيدة التي ثار من أجلها الإنجليز وصار من يوقع عليها ملاحقاً ومتهماً ، فلما عرض القصيدة عليه هم بالتوقيع عليها فبيَّنَ له «السقاف» عواقب ذلك ، وقال له : «لا تعجل حتىٰ تعلم أنك بالتوقيع عليها تعرض مالك وآلك للخطر بسنغافورة والمكلا وعدن ، وربما يعاتبك أصحابك ويلومك رفاقك فلا تقل إني غششتك ، فأخذته حمية واقشعرّ من الغيرة وأخذ ينتفض من الزمع ـ الرِّعدة ـ وقال :

أليس هـٰذا واجب الدين؟ أليس هـٰذا سلطان المسلمين؟

فقلت له : بلىٰ .

قال : والله لو أن الشِّفار ـ أي السكاكين ـ علىٰ رقاب أولادي أمام عيني ما انثنيت عن التوقيع عليها ، وليس في دعوة الإسلام مزاحمة» .

وهـٰذه الحادثة تدل علىٰ مدىٰ تمكن حب الدولة العثمانية من قلوب كثير من المسلمين آنذاك .

٢ ـ تأسيس حزب :

وهـٰذه خطوة جليلة متقدمة عن زمان الشيخ «السقَّاف» ، وتدل علىٰ وعيه

ونضجه السياسي وفهمه لطبائع الأمور، ففي سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م سعىٰ الشيخ وبعض العلماء والمثقفين مع السلطان علي بن صلاح القعيطي لتأسيس حزب في حضرموت ومركزه الرئيس في «سيئون»، وسموه بـ«الحزب الإصلاحي الاقتصادي»، وجاء في لائحته أن غرضه إصلاح القطر الحضرمي اقتصادياً وسياسيا. . . وضُبطت علاقته بالدولة القعيطية.

ولم يكتف «ابن عبيد الله السَّقاف» بهٰذا، بل إنه لما ذهب إلىٰ اندونيسيا وسنغافورة وجد أن الحضارم بحاجة لحزب سياسي إصلاحي فعرض عليهم إنشاء حزب اسمه حزب «النهوض والاعتدال»، لإصلاح الحال في «حضرموت» و«جاوا» وغيرهما من البلاد، وإنكار المنكرات، ونشر العلم، لكن يبدو أن الحزبين الذين اقترح «السَّقاف» أحدهما وأسس الآخر لم يُكتب لهما النجاح، وفي ذلك يقول:

«قد لقيت في عملي هٰذا ما يلقاه الحق من الباطل، نُبِزْت بالعيوب، واختُلقت لي الذنوب، وما عليّ من ذلك ما دامت الصحيفة نقية، والساحة بَريّة، غير أني ربما اختنق عزيمتي بعض الأحيان اليأسُ والمَلل. . . لأنني أنهض ولا نصير، وأهم بالطيران والجناح كسير، كلما بنيت قصراً قوّضه الجاحدون، وكلما سعيت في أمر عرقله المعاندون، ولله در أم القائل:

إذا ألفُ بانٍ خلفهم هادم كفى ... فكيف ببانٍ خلفه ألف هادمِ

- **صفاته:**

١ - الحفظ الواسع:

كان - يرحمه الله تعالىٰ - ذا حافظة عجيبة، ينقل آلاف الأبيات وكثيراً من مقولات القدماء من حفظه، وكان يقول عن نفسه: كنت في شبابي أحياناً أضع يدي اليسرىٰ علىٰ الصفحة اليسرىٰ خوفاً من أن تقع عيني عليها ويسبق حفظي

لها» وهٰذا ما لم نسمع بمثله من أهل عصرنا.

٢ ـ التواضع المقرون بالعزة:

وكان في نفسه متواضعاً، وإن غلبت عليه عزة العلم، حتىٰ صار أشبه بالزعيم منه بالشيخ، وقد ظهر هٰذا واضحاً في كتابه «العود الهندي».

٣ ـ الجرأة والشجاعة:

وكان صاحب جرأة وإقدام، يقول الحق ولا يبالي، وقد عَبّر عن طريقته هٰذه بقوله:

«فلا أقلّ من أن تزنوا ـ يا أيها الناس عموماً وأيها الطلبة خصوصاً ـ كل ما يقال بميزان العلم الصحيح الذي ترجعون إليه في الحلال والحرام، والصلاة والصيام فما وافقه فهو المقبول، وما خالفه فهو المردود»، ولا شك أن هٰذا المنهج بحاجة إلىٰ قوة وشجاعة للأخذ به والسير علىٰ هداه.

٤ ـ شاعر مطبوع:

كان» ابن عبيد الله» شاعراً مطبوعاً، صاحب معاني قوية، وألفاظ رقيقة، ويُعَدّ من الطبقة الأولىٰ من شعراء العصر الحديث، وله شعر كثير مضمن في ديوان له، فمن ذلك: قوله مخاطباً العلويين، مهيجاً لهم علىٰ الإصلاح:

كتاب الله للإصلاح داعي ... فهل حُرٌّ لقول الحق واعي

فقد بُحَّ المنادي للمعالي ... وما يغني النداء بلا استماع

ألا مُهَجٌ تذوب أسىً ووَجْداً ... على الشرف المعَرّض للضياع

بني الزهراء ليس الأمر سهلاً ... فقد حَسَر الفساد عن القناع

ومسّ الدينَ ضيم واضطهاد ... وآذن شمله بالانصداع

• وقال شارحاً حاله مع بعض أهل زمانه ممن خضع للإنجليز:

بقلبي لا يزال جَوىً مقيمُ ... كأني منه في الداجي سليمُ
تعاتبني الملاح على سُهادي ... لأني لا أنام ولا أُنيم
وكيف ينام حُرٌّ لم يشاهد ... من الأحوال إلا ما يضيم
مع الأغراض جُلّ الناس مالوا ... فكلٌ في مفاوزها يهيم
جفاني الأصدقاء وصدَّ عني ... أولى القربى وباعدني الحميم

ويمتاز شعره بالمقارنة بين معاني بعض الأبيات وما جاء في كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رسوله ﷺ ويفضلهما علىٰ الشعر.

ويرد علىٰ الشعراء، إذا خرجوا عن حد الشرع أو أساؤوا الأدب معه.

وهو ممن يحسن نقد الشعر، عارف بأساليبه، واقف علىٰ بحر خضم من أنواعه وتقاسيمه.

• ولما أجار الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالىٰ ـ المجاهد العراقي رشيد عالي الكيلاني، ورفض تسليمه للإنجليز، تحدث بعض الناس في أهمية تسليمه للإنجليز فقال الشيخ عبد الرحمـٰن: «معاذ الله أن يسلم (ابن سعود) جاره ولو انشقت الأرض أو خَرّت الأخاشب ـ أي الجبال ـ هداً»، ونظم قصيدة طويلة في عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، وسلمها للملك عبد العزيز بيده سنة ١٣٦٨هـ لَمَّا حج البيت الحرام، فاخترت منها التالي:

هذا العلاء الذي تسمو الأنوف به ... إلى النجوم وهذا المجد والحسب
يغنيك عما مضى للعُرْب من شرف ... هذا الصنيع الذي تعلو به الرتب
فقد أرانا عياناً ما تُشَنِّفنا ... بدرٌ أخباره الأشعار والكتب
فضيفُ هذا ملوك الأرض تطلبه ... ومجرم الحرب محتوم له الحَرَب
لكن ذمته للجار غالية ... فلن يجاب إلى تسليمه طلب
شهامة وسجايا كلها كرم ... والحق أبلج لا تلوى به الحجب

بابن السعود ويحيى والعزيز لنا ... أقصى المنى إن أجابوا الصوت واعتصبوا
هم الرعاة علينا الانقياد لهم ... ومنهم الرعي والإنصاف والحَدَب
هم خيمة للمعالي نستظل بها ... والمسلمون لها الأوتاد والطُّنُب
أمانة نحن في أيديهم وهمو ... للعز أو للهوان الشرط والسبب
هم نفحة الدين إن صحت مودتهم ... والويل إن فشلوا واصطكت الركب
إن لم تحطهم مع الإخلاص جامعة ... فالشر آت وعز الملك مستلب

٥ - سعة العلم:

قد كان السيد «السَّقَّاف» واسع العلم، بَزّ أهل بلاده فيه، لا يلحقه منهم أحد، وحضر درسه الحبيب عبدالله بن عمر الشاطري الذي تخرج على يديه ألوف الطلاب، وقد كان إمام بلدة تَريم، وكان «السقَّاف» يشرح «منهاج الطالبين» للإمام النووي في الفقه الشافعي، فلما سمع شرحه غلبه البكاء والنحيب فرحاً وإعجاباً بوجود مثله في هذا الزمان، فتعجب «ابن عبيد الله السقَّاف» من بكائه وانتحابه وسأله عن السبب، فقال:

«بكاء فرح وسرور»، وحسبكم بهذا دليلاً على سعة علمه، إضافة لما سبق إيراده في السطور السابقة.

٦ - رقته وعاطفته:

قد كان «ابن عبيد الله السقّاف» رقيقاً تغلبه العاطفة فيعبر عن ذلك شعراً ونثراً، فمن نثره الدَّال على غلبة عاطفته عليه قوله:

«أذكر أن أول صلاة كانت لي بالمسجد الحرام لما حججنا في سنة ١٣٢٢هـ هي الصبح خلف واحد من العلماء يُدعى - فيما أتوهم - «خُوقير»، قرأ في الأولى بـ«التِّين» فكاد القلب يخرج عن شغافه عند إشارته إلى البلد بقوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ٣] ثم ما كفاه ذلك حتى قرأ في الثانية سورة قريش،

فلا تسل عما داخلني عند إشارته بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] وما بيننا وبينه إلَّا أذرع يسيرة، فلولا الاعتصام بالأجل لالتحقت الروح بالباري عز وجلّ، ولكني:

ضممت على قلبي يديّ مخافةً وقد قرعته بالغطاة القوارعُ

وما ينفع القلب الذي طاش لُبُّه لتلك المعاني أن تضم الأصابع

وكثيراً ما شنق سمعي، واستوكف دمعي، وامتلك لُبِّي، واستأثر قلبي ما سمعته من قراءة إمام الحرم في صلوات الصبح سنة ١٣٥٤هـ وتذكرت صلاة والدي، إلَّا أن تلك أخشع، وقراءة إمام الحرم أجود وأسمع».

• **أهله وأولاده:**

تزوج من امرأة واحدة، أتت له بسبعة أبناء وبضع بنات، وقد مات ولده «بَصْري» فرثاه مرات عديدة أودعها ديوانه، وقد اشتد حزنه عليه، وكذلك مات ولده «عليّ» بعده فرثاه بمرثية واحدة.

• **مؤلفاته:**

لـ «ابن عبيد الله السقاف» مؤلفات عديدة في العقيدة والحديث والفقه والأدب والتاريخ، بعضها طبع وأكثرها غير مطبوع، ومن أهم ما طبع: كتاب «العود الهندي» الذي أبان فيه عن قريحة شعرية رائعة وحفظ منقطع النظير، والكتاب شرح لبعض أبيات للمتنبي في ثلاثة أجزاء.

وكتاب «إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت»، اختصره من كتابه «بضائع التابوت» وطبع في جزء واحد كبير.

• **قالوا فيه:**

• **قال الشيخ «علي بن عبد الله السقاف»:**

«مفتي حضرموت الشهير الذي اتسعت علومه وشهرته، وطار صيته في

البلدان».

• **وقال الشيخ أبو بكر المشهور:**

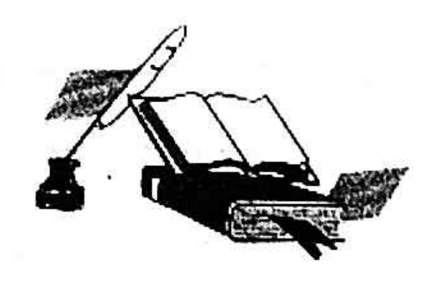
«حجة عصره وبليغ زمانه، وفقيه أوانه».

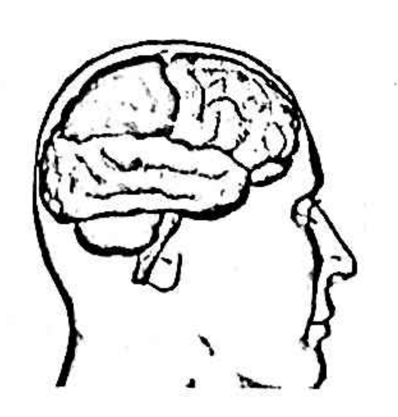
• هٰذا وإني لم أنقم عليه شيئاً مما قرأته عن حياته سوىٰ أنه يظهر ميلاً واضحاً لعلي ﷺ حتىٰ يبدوا منه أنه يفضله علىٰ الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ إلا أنه يعظمهما ويترضىٰ عنهما، هٰذا الذي أنقمه عليه من سيرته وأسأل الله تعالىٰ أن يغفره له ويعلي درجته.

• **وفاته:**

توفي - رحمه الله تعالىٰ - ببلدة «سيؤون» سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م بعد مرض ألمّ به، وشُيعت جنازته في مشهد عظيم لم تشهده سيئون في تاريخها، رحمه الله رحمة واسعة.

* * *






أمجد
الزهاوي
١٣٠٠ - ١٣٨٦هـ
١٨٨٢ - ١٩٦٧م
الجزء
٤
الرابع

العالم الزاهد
أمجد الزهاوي

العلماء العاملون المخلصون هم سراج الظلام، وقادة الأنام، الذابّون عن الإسلام، وهم الذين يفزع إليهم الناس في المشكلات، وفي الظلمات الحالكات، إذا أحاطت بهم المعضلات، واشتدت عليهم وطأة الحادثات، وهم الذين أثنىٰ الله عليهم في كتابه، ونوه بشأنهم ورفعة درجاتهم رسول الله ﷺ في سُنَّته، وفاقت درجاتهم منازل الشهداء، ورجحت أعمالهم علىٰ أعمال العُباد والزهاد الفضلاء، فَلِلَّهِ ما أحسن عملهم، وما أعظم مآلهم ومنقلبهم.

بَيْد أن هـٰذا لا يكون إلا للعاملين منهم والمخلصين، ولقد كان من هـٰؤلاء ثلة في عصرنا الحديث أحسب أن منهم الشيخ الفاضل العامل «أمجد الزهاوي»، الذي كان من أزهد العلماء في الدنيا، ومن أخلصهم، والله حسيبه.

ولد سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م في بغداد، من أسرة عريقة في العلم، فقد كان أبوه الشيخ «محمد سعيد» مفتي بغداد، وجده الشيخ «محمد فيضي» كان مفتي بغداد أيضاً.

وقد نشأ الشيخ «أمجد» تحت رعاية جده الذي كان يحبه ويؤثره.

ودرس علىٰ أبيه وجده وعلىٰ يد علماء آخرين العلوم الشرعية حتىٰ صار معدوداً من فقهاء الحنفية المجيدين، ومن أشهر الذين درس علىٰ أيديهم: الشيخ «محمود شكري الألوسي»، والشيخ «عبدالوهاب النائب».

ثم درس في كلية الحقوق وتخرج فيها، ودرس في معهد القضاء العالي في اسطنبول وتخرج فيه سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، وبرع في العلم حتىٰ صار العالم

الأوحد في بغداد، وصار مفتي العراق حقاً، وأطلق عليه لقب «أبو حنيفة الصغير»؛ لإحاطته بالمذهب واستيعابه لدقائقه حتىٰ قيل فيه: «لو فُقد المذهب الحنفي واندثرت كتبه لأملاه (الزهاوي) عن ظهر قلب من أول أبوابه حتىٰ خواتيمها».

• مناصبه:

عُين ـ بعد عودته من اسطنبول ـ مفتياً للاحساء، ثم صار عضواً في محكمة استئناف بغداد، ثم رئيس محكمة حقوق الموصل.

لما دخل الإنجليز بغداد، اعتزل الوظائف، وعمل في المحاماة، وقد احتسب عمله لله في ثلاث قضايا فلم يأخذ عليها أجراً:

القضية الأولىٰ: الدعوىٰ المرفوعة لمنع البهائيين في العراق.

والثانية: دفاعه عن الشيخ «ضاري الزوبعي» قاتل الكولونيل «لجمن» في ثورة العشرين.

والثالثة: الدفاع عن «ناظم الزهاوي» في قضية حرية الصحافة.

ثم عاد إلىٰ الوظائف فعمل مستشاراً للحقوق في وزارة الأوقاف، وأستاذاً في كلية الحقوق العراقية، ثم رئيس مجلس التمييز الشرعي، ورئيس رابطة علماء العراق.

• مناصبه بعد التقائه بـ «الصواف»:

ثم لما التقىٰ بالصواف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ تفطن إلىٰ أهمية التحرك للعمل لإنجاد المسلمين وتولىٰ مناصب عديدة في هٰذه الوظيفة العظيمة، وقد قال الأستاذ علي الطنطاوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في هٰذا الشأن:

«كان كنزاً مخبوءاً فكشفه الصواف، عاش الشيخ «أمجد» قاضياً في

الموصل فما عرفه أحد ولا عرف أحداً، حتىٰ إذا جاء الشيخ «الصواف» عرّف به الناس واستفاد مما عنده من العلم ومن العبقرية ومن النبوغ، لولا حماسة «الصواف» لما ظهرت هٰذه العبقرية المخبوءة. . . ولقد عجبت من هٰذا النشاط الذي عراه في شيخوخته، في السن التي يخمد فيها ـ عادة ـ في نفوس أهله النشاط، وعهدي به أنه كان قاضياً منعزلاً منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده، فلما ترك العمل وبلغ السن التي يستريح فيها أمثاله انتفض انتفاضة فإذا هو يرجع شاباً: شاباً في جسده، وفي همته، وإذا هو ينتقل بقفزة واحدة من حياته بلغ فيها الغاية في العزلة إلىٰ حياة بلغ فيها الغاية في الاختلاط، فكان هو الرئيس لجمعية إنقاذ فلسطين، وجمعية الآداب الإسلامية، وجمعية الأخوة الإسلامية ـ أي الإخوان المسلمين ـ وجمعية التربية الوطنية، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف، ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية، وإذا هو يرحل إلىٰ الهند أولاً وثانياً، ويرحل مرات ومرات إلىٰ الشام والحجاز ومصر». انتهىٰ كلام الشيخ الطنطاوي الذي يدل بوضوح أن هناك جماعة من العلماء الزاهدين المخلصين إذا بُين لهم أهمية التحرك لنصرة دين الله تعالىٰ هبُّوا لذلك، وتحولت طبائعهم ونفسياتهم إلىٰ ما يمكن أن يصل إلىٰ النقيض مما كانوا عليه من قبل.

ومن أقواله التي تدل على تأثره بالدعوة واقتناعه بها، وأنها هي السبيل الوحيدة لإنقاذ بلاد الإسلام قوله للأستاذ الصواف في رسالة بعث بها إليه:

«يَسُرُّنِي ما أنتم فيه، وإن شاء الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ سيكون من جهودكم في تربية الناشئة ما يملأ الآفاق عزماً وعلماً، وستهتمون مع المدير ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ بأمر التربية أكثر من ناحية العلم؛ فالعلماء في مصر كثيرون ولم يظهر لأحد منهم ما يقارب عمل البنا ـ رحمه الله ـ فله في نواحي الإسلام دعاة للخير، وسينجحون ـ إن شاء الله ـ والعاقبة للمتقين.

إن التربية الصحيحة الجدية هي التي تغرس في قلوب الناشئة عظمة الإسلام ومظاهر القوة، وأمرٌ يكون أمثال هٰؤلاء حماته لن يتسرب إليه ضعف بحول الله، فالله ناصرهم لا محالة؛ بإخلاصهم النية وامتثالهم أوامر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في نشر الدعوة والدفاع عنها: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ومما قاله أيضاً في هذه المسألة:

«إن علماء الشام أناس طيبون غير أن الذي ننقم عليهم في هٰذا الباب أن مساعيهم فردية، والمساعي الفردية لا تكاد تثمر الثمرة التي يرجوها العالم الإسلامي... علىٰ علماء الشام أن يتصلوا بالعالم الإسلامي وبقادة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي لتوحيد المساعي وتقريب وجهات النظر، والسير علىٰ خطة موحدة استجابة للمؤتمرات الإسلامية العالمية التي عقدت في السنوات الأخيرة».

ومما يعزز هٰذا الذي ذكرته عن تأثره بالدعوة ورغبته فيها، أنه رأىٰ في منامه الإمام «الغزالي» فطلب أن يقرأ كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد»، فرد عليه: ليس هٰذا وقته، وفسر الرؤيا بأن الوقت وقت عمل في سبيل الأمة وليس وقت دراسة، ذكر هٰذا عنه الشيخ «نعمان السامرائي».

ومما يدل علىٰ ندمه علىٰ عزلته قبل لقائه «الصواف»: أنه حدثه أنه مكث ست سنين في الموصل عندما كان رئيساً لمحكمة الحقوق فيها، فلم يتعرف علىٰ علمائها ورجالها، وكان يحدثه بهٰذا ـ كثيراً ـ حديث المتأسف المتألم، وكان يكثر التعجب من حاله آنذاك.

وقد اعترف مرة في خطبة له في جامع أبي حنيفة بالأعظمية بهذا، فقال:

«مما يؤلمني أني قضيت أكثر عمري أعمل في أمور فقهية وقد غفلنا عن أمر عظيم جداً وهو تبليغ هٰذه الدعوة المباركة إلىٰ الناس، لذا أطلب منكم أيها

الشباب أن ترفعوا راية الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ خفاقة عالية».

• ومن المناصب التي تولاها إضافة لما ذكره الشيخ علي - رحمهما الله تعالىٰ: رئاسة المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد في القدس نصرة لها سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، وكان من المؤسسين لرابطة العالم الإسلامي، ورئس لجنة إنقاذ الجزائر أيام حرب التحرير.

• **أعظم صفاته:**

• الزهد والإخلاص:

من أهم صفات الشيخ: الزهد والإخلاص - نحسبه كذلك والله حسيبه - فقد كان غير متعلق بشيء من الدنيا، وليس له فيها غرض إلا العمل لهٰذا الدين العظيم، علىٰ أنه كان معدوداً من أهل الغنىٰ واليسار؛ فقد كان له أراض واسعة، وكان لا يُعنىٰ بلباس ولا طعام، يأكل ما يجد، ويلبس ما وجد، ولقد حكىٰ الشيخ «علي الطنطاوي» عنه جملة من الحكايات تدل علىٰ ذلك، فمنها: أنه لما كان معه في الهند رآه لا يهتم بالطعام، فطلب يوماً من النادل ألا يأتيه بطعام الغداء، فلما جاء العشاء أكل الشيخ منه أكل الجائع فسأله الشيخ «علي» عن الغداء فقال: لم يأتونا اليوم بغداء!!

وذكر الشيخ «علي الطنطاوي» - أيضاً - أنهما لما سافرا معاً من أجل فلسطين كان الشيخ «أمجد» إذا لم ير مصلحة لفلسطين في بلد ما لم يمكث فيه، ولا يمشي لغير القضية متراً واحداً، حتىٰ أن تاج محل - وهو أجمل بناء علىٰ ظهر الأرض - لم يَرَهْ لما كان في الهند ولم يُمكّن الطنطاوي من رؤيته، وقد كانا في «دهلي» علىٰ مقربة منه؛ والناس يقصدونه من أقاصي الدنيا فلم يذهب ولم يرض لـ«الطنطاوي» أن يذهب؛ لأنه رأىٰ أنه لا مصلحة لقضية فلسطين في رؤيتهما «تاج محل»، وهكذا هم العلماء الصادقون المخلصون الزاهدون، جعلنا الله تعالىٰ منهم.

• **الحفظ المتين:**

وكان حُفَظَةً لا يكاد ينسىٰ شيئاً، فقد كان يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة، بل إنه يتذكر أرقام الصفحات للمواضيع والأسماء التي يأتي عليها في دروسه وكلامه، وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام، وكان في الوقت نفسه، ينسىٰ نسياناً عجيباً، كما سأذكر بعض شواهده في هٰذه الترجمة، إن شاء الله تعالىٰ.

• **الهمة العالية:**

كان للشيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ همة عالية أسعفته في طلب العلم والتميز فيه عن أقرانه، وأسعفته بعد ذلك في أعماله العديدة، ومن الشواهد على هِمَّتِهِ: ما ذكره الأستاذ «عبد العزيز القصاب» في مذكراته عن شقيقه الشيخ «عباس القصاب» الذي كان شيخاً للزهاوي فقد حكىٰ له أنه في أحد الليالي التي انغمرت فيها بغداد بالمطر والطين والوحل سمع الشيخ عباس طرقاً علىٰ الباب في ساعة متأخرة من الليل، فنزل ليفتح متعوذاً، فوجد تلميذه الشيخ «أمجد الزهاوي» واقفاً بالباب، فسأله:

ما الذي جاء بك في هٰذا الليل الْمُدْلَهِمّ والمطر الغزير؟

فقال له: لقد شغلتني مسألة فقهية لم أجد جواباً لها فلم أستطع أن أنام!!

فأجابه الشيخ: يا ولدي: أنت حضرت درسي طوال الصباح، ثم جئت إلىٰ المدرسة بعد الظهر وسمعت دروسي، والآن تأتيني في نصف الليل وتطلب درساً آخر!!

وذكر الأستاذ «سامي الجميلي»: أن الشيخ سقط مرة من التعب وهو متجه إلىٰ المسجد فحُمل إلىٰ المسجد كي لا تفوته الصلاة، وهٰذا دليل علىٰ الهِمَّةِ العالية.

وكان آخر مؤتمر حضره الشيخ هو مؤتمر مكة المكرمة الذي دعت إليه رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، وقد حمل إلىٰ الطائرة حملاً، وكانت آثار المرض والكبر ظاهرة عليه، فلما قيل له: كيف تسافر وأنت علىٰ هٰذا الحال؟ أجاب: «إنها صيحة إسلامية دُعيت إليها وما كان لمثلي أن يتأخر عن إجابة مثل هٰذه الصيحة، ولعل الله أن يجعل فيها خيراً للمسلمين»؛ وهٰذا دليل آخر علىٰ همته العالية، رحمه الله تعالىٰ.

• **الورع:**

كان الشيخ - رحمه الله - ورعاً، يخشىٰ علىٰ نفسه من الحرام، ويحفظ مطعمه ومشربه، ولما كان في الهند في أحد فنادقها - لما ذهب إليها من أجل قضية فلسطين - شك في طعام الفندق فبقي شهرين لم يأكل إلا الخبز والشاي فقط!!

قال النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»[1]

• **القوة في الحق:**

كان الشيخ - رحمه الله - قوياً في الحق، لا يخشىٰ أحداً، ولا يبالي بأحد، ولقد جرىٰ له أمر يدل علىٰ هٰذا فقد أخبر الشيخ عبد القادر حتاتة - خطيب مسجد الإمام أبي حنيفة في الأعظمية - الشيخ الصواف أن الحكومة أيام الملكية طلبت من الشيخ «أمجد» أمراً فرفضه، وكان رئيسَ مجلس التمييز الشرعي، لأن الأمر مخالف للشرع، فذهب إليه مسؤول كبير وأبلغه رغبة الملك فيصل ملك العراق في إتمام الأمر فرفض وقال: إرادة الله فوق إرادة الملك.

وقد وصف قوته تلك الشيخ الصواف - رحمهما الله تعالىٰ - فقال في رثائه:

«لقد صحبتك صحبة إخاء ووفاء وجهاد قرابة ربع قرن فما ونيت - أي تعبت - ولا وهنت ولا ضعفت، وما استكنت ولا جاملت ولا داهنت بل كنت

(١) صحيح البخاري

في الحق سيفاً قاطعاً، وطوداً شامخاً تعلي كلمة الله ولا تخاف في الحق لومة لائم».

• **الولاء والبراء:**

كانت عقيدة الولاء والبراء راسخة في نفس الشيخ «أمجد» - رحمه الله تعالىٰ - واضحة كل الوضوح، فهو يكره الكافرين وأعداء الإسلام ويبرأ منهم، ويحب المؤمنين ويواليهم، وقد كان له عم مشهور وهو الشاعر «جميل صدقي الزهاوي»، لكنه أبغضه وقاطعه وهجره لكفره وضلاله، ولما مات لم يخرج في جنازته.

وهناك حادثة أخرىٰ ذكرها الأستاذ «خالد القشطيني» يصف فيها ما وقع بين الشيخ - رحمه الله تعالىٰ - وبين أحد بنّائي بغداد، فقال:

«جاء بأحد بَنَّائِي بغداد لِيَبْنِيَ له حائطاً في بيته ليكون ستاراً بينه وبين بيت جيرانه الذي انتقلت إليه بعض النسوة، باشر البنا بالعمل حتىٰ كاد ينتهي منه، بيد أن الشيخ «أمجد» سمعه ذات يوم وهو يزبد ويعربد ويسب عماله ويكفر بالله علىٰ عادة الكثيرين من البنائين في العراق وهم يقومون بعملهم تحت شمس بغداد المحرقة وحرارة صيفها الرهيبة.

سمعه الشيخ «أمجد» يكفر بالله فاستشاط غضباً، ونادىٰ عليه وعَنَّفَهُ علىٰ كفره بالواحد الأحد، اعتذر البناء عما نطق به واستغفر ربه وطلب العفو من الشيخ، ولكن الشيخ لم يغفر له، ويظهر أنه نسي كل آيات العفو والمغفرة الواردة في القرآن الكريم، إذا كان الله سيغفر لذلك البناء ويتقبل توبته فالشيخ أمجد لا يغفر له أو يقبل توبته. قال له:

اذهب واغسل يدك من الْجُص وتعال خذ حسابك ولا ترجع لهٰذا العمل بعد اليوم، أنا ما أسمح لكافر يشتغل عندي.

ذهب الرجل آسفاً، متعجباً، غسل يده وعاد واستلم حسابه من الشيخ عن الأيام التي اشتغل فيها ببناء ذلك الجدار، ثم فتش «أمجد الزهاوي» عن بَنّاء آخر ورع ومتدين ليكمل له البناء، ولكنه لم يكمله قط، قال له الشيخ: اهدم كل ما بناه ذلك الكافر وأعد بناء الحائط من الأول، فأنا لا أحب أن اسكن بيتاً فيه حائط، أو جزء من حائط بناه رجل كافر يكفر بالله، هٰذا عمل من أعمال الشيطان، اهدمه يا ولد، يا ابني، وأزل كل آثاره من قدامي ثم ابتدئ ببناء الحائط من الأول، هز البنا رأسه متعجباً ولكنه عمل ما طلب منه.

وهكذا دفع الشيخ «أمجد الزهاوي» أجرات ثلاثة عن بناء هٰذا الحائط الصغير، أجرة البناء الأول، ثم أجرة هد ما بناه وإزالته، ثم أجرة البناء الثاني في إعادة البناء» اهـ.

• **عمله من أجل فلسطين:**

رأىٰ الشيخ «أمجد الزهاوي» ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ما حلّ بأرض فلسطين من بلاء، واجتماع اليهود علىٰ أرضها الطاهرة وتدنيسهم إياها، وكانت نذر الحرب آنذاك قد اجتمعت فاجتهد مع الصواف ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ في تجهيز المتطوعين للجهاد في أرض فلسطين، وطلب المال من الناس فجاءه مال كثير ولله الحمد.

وبعد النكبة تداعىٰ الشيخان لتأسيس مؤسسة تعمل من أجل فلسطين فأسسا المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقدت جلساته في القدس سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، واختير فيه الشيخ «أمجد الزهاوي» بالإجماع رئيساً له، ولتأسيس المؤتمر قصة وحوادث سبقت قيامه ورافقته لا أجد لذكرها مكاناً في هٰذه الترجمة الموجزة، لكن الشيخ «أمجد» بذل جهوداً جليلة لتأسيسه وقام بعمل عظيم في جمع التبرعات لتأسيس المؤتمر ونفقة الضيوف الذين وردوا علىٰ القدس من أماكن كثيرة من العالم الإسلامي، وكلم رئيس وزراء العراق آنذاك

«محمد فاضل الجمالي» فأعطاه ألفي دينار، وطلب من بعض التجار والأغنياء.

• عمله من أجل الجزائر:

عُين الشيخ رئيساً للجنة العليا لمناصرة جهاد الجزائر التي أسست بعد ابتداء ثورة الجزائر، وكان يقيم الاجتماعات هو والشيخ «الصواف» - رحمهما الله تعالىٰ - من أجل جمع المال للجزائر وتسليمه لممثل المجاهدين في العراق.

• هجرته إلى المدينة:

لما وقع انقلاب عبدالكريم قاسم في العراق سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، سانده الشيوعيون وضيقوا علىٰ المسلمين خاصة الدعاة العاملين، وزاد الطين بِلة المجازر التي أقامها الشيوعيون المساندون لعبدالكريم قاسم بعد ذلك، فقد قتلوا خلقاً من الناس بأبشع الطرائق وأشنعها، وشاع الخوف في الناس، وصادر الشيوعيون أراضي الشيخ وأملاكه في منطقة «الخالص» من لواء «بعقوبة» وضيقوا عليه، فخرج «الزهاوي» من العراق مهاجراً إلىٰ مدينة رسول الله ﷺ فسكن في غرفة أمام باب المجيدي، لكنه لم يُطل المكث فيها فقد عاد إلىٰ العراق بعد قرابة سنة.

وبعد بضعة أشهر لحق به «الصواف» - رحمهما الله تعالىٰ - وفي المدينة أرسل الشيخ «أمجد» بمعاونة الشيخ «الصواف» - رحمهما الله تعالىٰ - رسائل إلىٰ كثير من الملوك والرؤساء سلمها لسفرائهم في جدة، يحثهم فيها علىٰ التمسك بالإسلام ورعاية جنابه، وأنه هو مصدر عزتنا وسؤددنا.

وقابل الشيخ «أمجد» والشيخ «الصواف» ملك المغرب محمد الخامس في المدينة عندما زارها مصلياً مسلماً، وتأثر بهما الملك، وسلماه رسالة فيها الحث علىٰ التمسك بالإسلام وبعض النصائح الأخرىٰ، ووعد الملك بتنفيذ ما طلباه لكن القدر لم يمهله فبعد عودته إلىٰ المغرب بقليل توفي - رحمه الله تعالىٰ - وقد

سلماه الرسالة في قصر سلطانة بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٣٧٩هـ ـ ٢٤/ ١/ ١٩٦٠م.

وفي ٢٨ رمضان سنة ١٣٧٩هـ سلما رسالة للملك سعود في مكة المكرمة تحمل المعاني نفسها، وطلبا منه إنشاء حلف إسلامي يضم سائر ملوك ورؤساء المسلمين.

• **من غرائب الشيخ ولطائفه:**

كان الشيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ لا يُلقي لمظهره بالاً، ولا يلتفت إليه، وفي أحد المؤتمرات لقيه الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فرأىٰ أن عمامته مشوشة، وقد اتسخت جوانبها من كثرة العرق، واحمرّت من صبغ الطربوش، ورأىٰ ثيابه الرثة، وشعره الطويل الثائر فظنه فقيراً، فأتىٰ له بحلة وعمامة وتحدث معه ليقبلها فضحك الشيخ، وقال له:

أفندي: ظننتني فقيراً؟ أنا أملك ١٦ ألف دونم، والدونم ألف متر مربع!!

لكن هٰذه الأرض الواسعة كانت في يده لا في قلبه؛ فقد ذكر الشيخ «علي الطنطاوي» ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أنهما كانا في كراتشي من أجل فلسطين ففاض نهر دجلة، وغرقت بغداد فحاول أن يسأله عن مصير أرضه، وكرر عليه السؤال: هل غرقت مع ما غرق أو سلمت؟

فكان يغضب، ويقول:

إني خرجت في سبيل الله فلا تشغل ذهني بها!!

وذهب هو والشيخ علي الطنطاوي في «بومباي» يريدان زيارة القنصلية السعودية ثم القنصلية العراقية، وكانت العراقية في طريقهما فاقترح عليه الشيخ «عليّ» أن يدخل العراقية أولاً فوافق، ودخلا وجلسا جلسة طويلة فلما خرجا قال الشيخ: هيا بنا إلىٰ العراقية، فبين له الشيخ «عليّ» أنهما كانا فيها، فغضب

الشيخ وقال: لِمَ لَمْ تخبرني؟ كنت أحسبها السعودية!! فقال له الشيخ «علي»: أما رأيت العَلَم؟ أما رأيت صورة الملك «فيصل بن غازي»؟ أما حدثتهم عن بغداد؟!!

وذكر الشيخ «علي الطنطاوي» - أيضاً - أنهما لما سافرا معاً وصلا إلىٰ «بومباي» فحدثت لهما هنالك حادثة تدل علىٰ أن الشيخ قليل المعرفة بأمور الدنيا، فقد قال الشيخ «علي»: تلقانا الرجل الكريم الذي مَنّ علينا وهو السيد «عبدالله البسّام» فسألنا: هل تنزلون في «بِنسيون»؟ فغضب الشيخ غضباً ما رأيته غضب مثله، وقال: بنسيون؟ بنسيون؟ يحسب البنسيون ماخوراً أو مكاناً للفسوق، وحاولت أن أشرح له ما هو البنسيون، فما تركني أتكلم!!

وهو لا ينتظر تمام الجملة ولا يرقب الشرح، بل هو يثور بي ويُسكتني وأنا رجل أعرف له قدره، وأراعي سنه، ولكن حدة طبعي لا تحتمل ذلك من أحد، فكان يقع بيني وبينه ما يكون بين الولد وأبيه والتلميذ وأستاذه.

وقال الأستاذ خالد القشطيني:

صادفته في الطريق امرأة في باب المعظم لم تكن له أية معرفة سابقة بها، ولا هي عرفت أي شيء عنه أو عن مكانته سوىٰ العمامة التي كانت علىٰ رأسه والجبة التي لف بها بدنه.

قالت لنفسها: لابد أن يكون لهـٰذا الرجل بهـٰذه العمامة والجبة كلمة مسموعة في الدولة، تقدمت إليه لتتوسل به، فقد كانت الشرطة قد اعتقلت ابنها لاشتراكه في مظاهرات سنة ١٩٤٨م، سنة الوثبة التي يتذكرها أكثرنا ممن عاش في تلك الحقبة، كنت واحداً منهم وشاركت في مظاهراتها، ولكنني كنت جباناً فهربت ولم تستطع الشرطة اعتقالي.

كأي أم حريصة علىٰ سلامة أولادها، راحت تلك المرأة تتوسل بالشيخ «أمجد الزهاوي» وتلتمس منه التدخل لدىٰ السلطات لإطلاق سراح ابنها من

السجن : إنه بريء والله العظيم ، هـٰذا ابني بريء ، راحت تردد وتولول دون أن تعرف ما الذي كان ولدها قد قام أو لم يقم به ، وكذا فعل الشيخ ، ولكنه طمأنها ووعدها بأن يبذل جهده من أجل الإفراج عن ابنها دون أن يعرف أي شيء عن موضوعه أو جرمه .

عاد إلىٰ البيت ، نزع جبته وعمامته ، وتناول التلفون ليكلم جلالة الملك فيصل الثاني ، تغمده الله برحمته ، لم يكن يعرف من يكلم في هـٰذا الموضوع غير الملك نفسه ، هكذا حدث نفسه ، إنه سيد البلاد وهو الذي بيده أمورها .

أدار الرقم علىٰ البلاط الملكي ، وأجابه عامل التلفون : من تريدون؟

أجابه قائلاً : أريد فيصل أفندي ! كان الشيخ الزهاوي مازال يعيش في تراث الآداب العثمانية : الأفندية هم صفوة القوم وافترض الشيخ أن يكون هـٰذا هو اللقب الجدير بالملك : أفندي ؛ فهو يلبس سترة وبنطلون وليس جبة وعمامة أو جراوية . لم يكن «أمجد الزهاوي» قد ألم بالألقاب الجديدة : صاحب الجلالة وصاحب السمو وصاحب الفخامة وصاحب السعادة . . . وهلم جرّا .

ابني : أعطني فيصل أفندي ، ويظهر أن عامل التلفون قد اهتز بهـٰذا الخطاب ، أن يكون هناك من يخاطب الملك بلفظة أفندي ، لابد أن يكون هـٰذا الشخص شخصاً مهماً ، فبادر علىٰ الفور بفتح الخط علىٰ الملك فيصل الثاني مباشرة في مكتبه الخاص ، فحدثه عن الموضوع ، موضوع هـٰذه المرأة وابنها البريء المعتقل ، والتمس من الملك أن يقوم بدوره ويأمر بإطلاق سراح هـٰذا التلميذ الشاب ويعيده إلىٰ أهله ، طمأنه جلالته علىٰ ذلك ، بأنه سيستعمل سلطته ويأمر بالإفراج عن هـٰذا الشاب ، شكره الشيخ سلفاً عن حسن صنيعه : «بارك الله فيك وأمد في عمرك» ، وهو ما حصل ، بارك الله به ولكنه لم يمد بعمره ، فبعد سنوات قليلة أطلق المجرمون الرصاص عليه وقتلوه .

لم يكن «أمجد الزهاوي» قد أغلق التلفون وانصرف لتناول عشائه حتى رنّ جرس التلفون ثانية، مكالمة من البلاط إنه «فيصل الثاني» نفسه: سماحة الشيخ: أنت لم تعطني اسم هـٰذا الشاب لآمر بإطلاق سراحه، شنو اسمه الكامل؟

حك «أمجد الزهاوي» رأسه، فكر وتأمل، الحقيقة أنه لم يسأل المرأة المذكورة عن اسم ولدها، كيف فات عليه ذلك؟! أخبر جلالته أنه في الواقع لا يعرف اسم هـٰذا الشاب، وحكى للملك حكاية تلك المرأة وأنه لا معرفة له بها، وصادفته في الطريق وتوسلت به أن يتوسط للإفراج عنه.

قال له الملك: ولكن كيف سأطلق سراح من لا أعرف اسمه؟ هناك عدد كبير من المعتقلين في السجن، ولا يدري من منهم ذلك الشاب.

فأجابه «أمجد الزهاوي»: وأنتو ليش حابسين كل هالشباب؟ فكوا عنهم كلهم وخلي هالوليد يطلع وِيّاهم[1].

لم يجد جلالة الملك بُداً من ذلك؛ لقد وعد الشيخ المرأة بالإفراج عن ابنها، ووعد الملك الشيخ «الزهاوي» بتلبية ذلك، ولم يبق بيده غير أن يطلب من المسؤولين إطلاق سراح كل هـٰذه الجوقة من المعتقلين الشباب وهو ما كان، وهو ما جرى في ذلك اليوم من أيام الخير».

- **من الأقوال التي أثنت على الشيخ:**

قال فيه الأستاذ الصواف، رحمهما الله تعالى:

«رحمك الله أبا العلماء، وإمام الفقهاء، وسيد الزهاد العظماء، وقائد المجاهدين وإمام المسلمين الصامدين الصابرين الصادقين المخلصين، في بلدك وفي عصرك».

---

(١) ومعنى كلامه: لماذا تحبسون كل أولئك الشباب، فكُّوهم ودع ذلك الولد يخرج معهم.

وقال فيه أيضاً:

«قضيت مع فقيدنا العظيم قرابة ربع قرن لا نفترق سفراً ولا حضراً، داخل العراق وخارج العراق، لقد كنا نجوب الآفاق، ونقطع الفيافي والقفار، ونؤسس الجمعيات، ونحضر المؤتمرات الإسلامية، بل نقيمها وندعو إليها، وننادي ونصيح بالمسلمين صيحات متواصلة علّنا نجد من يستجيب للنداء ويعمل للأخذ بيد هـٰذه الأمة المنكوبة التي ابتليت بفساد نظم الحكم فيها، وعجز علمائها، وجهل شعوبها، وفساد الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية والأخلاقية فيها».

قال فيه مؤرخ العراق عباس العَزّاوي، رحمهما الله تعالى:

«حياته . . . كانت ذات صبغة دينية خالصة، وسياسية شرعية لا شائبة فيها وصحيحة بمعنىٰ الكلمة، ويطول الكلام فيه، فقد كان مثال النزاهة والصلاح والتقوىٰ والعدل والزهد، كان علىٰ هـٰذا إلىٰ آخر أيامه».

قال فيه الأستاذ الدكتور عبدالكريم زيدان:

«ما رأت عيني مثله علىٰ كثرة من رأيت وعرفت وخالطت . . . إخلاصاً نقياً، ومخافة من الله، واهتماماً بأمر المسلمين . . . أما إخلاصه فكان صافياً خالصاً لا تشوبه أكدار التلفت إلىٰ الجاه والسلطان والمنصب والثناء والسمعة والظهور . . . وأما اهتمامه بأمور المسلمين . . . فقد أهمه أمر المسلمين وأرّق جفنه . . . ».

قال فيه الشيخ نعمان السامرائي:

«لو وُضع علماء العراق في كفة ووُضع الشيخ أمجد في كفة، لرجحت كفة الشيخ أمجد».

● **أولاده:**

له ثلاثة أبناء، أحدهم كان قاضياً شرعياً في الموصل وهو «يونس الزهاوي»، و«سعيد الزهاوي» كان أستاذاً بكلية الشريعة في بغداد.

وله بنت واحدة اسمها «نهال»، وعُني بها والدها حتىٰ نالت إجازة في الفقه علىٰ يده، وأنشأت جمعية «الأخت المسلمة» ورأستها، و«مدارس الأخت المسلمة» التي كان لها أثر جيد في الحفاظ علىٰ كثير من النساء العراقيات وحمايتهن من موجات التغريب والإلحاد العاتية التي أغرقت المجتمع آنذاك، لكن تلك المدارس صودرت بعد ذلك.

وخرجت «نهال» مع أبيها إلىٰ المدينة فأقامت هنالك سنة ثم عادت إلىٰ العراق لتواجه أعنف الضغوط من قبل الحكام الظلمة آنذاك، ولها كتابات إسلامية.

● **مؤلفاته:**

له كتاب «الوصايا والفرائض» فقط فيما أعلم، فقد كان مُقلاً من التأليف، لكن كان له فتاوىٰ كثيرة ولم تنشر.

● **وفاته:**

توفي - رحمه الله تعالىٰ - سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م في بغداد، ودفن في مقبرة الإمام الأعظم أبي حنيفة في حي الأعظمية، وكانت جنازته مشهودة، رزقنا الله بمثله، آمين.

* * *







عبد العزيز
البدري
السامرائي
١٣٤٩ - ١٣٨٩هـ
١٩٣٠ - ١٩٦٩م
الجزء
٥
الرابع

سيد الشهداء العالم الصادع
عبد العزيز البدري السامرائي

لا أعـرف بلداً في بلاد العـرب كثـر فـيـه القـلاقل والفتن منذ فجـر تاريخ الإسلام إلىٰ يومنا هـٰذا مثل البلاد العـراقية، فكم فتنة فُتن بها العراقيون، وكم من دماء سالت، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لكن الله ـ تبارك وتعـالىٰ ـ رزق العراق بعلمـاء عاملين كـانوا هم قُبَّ الميزان، وصِمام الأمـان، ومَفْزَع النـاس، فوقفوا في وجـه الطغاة والظلمـة، وصدعـوا بكلمـة الحق، لم يخـافـوا لومـة لائم، ولم يخشـوا إلا الله سبـحـانه وتعـالىٰ، وأحسب أن من رؤوس هـٰؤلاء العلمـاء ومن كبـارهـم الشيخ المجاهـد الشهيد بإذن الله تعالىٰ «عبدالعزيز البدري».

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في رصافة بغداد في حدود سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٣٩م وتوفي مقتولاً شهيداً سعيداً حميداً بإذن الله سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م فقد عاش قرابة أربعين سنة لكنه ترك أثراً كبيراً لا يتناسب مع عمره القصير ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فـمـا أشبـهـه بمن مـات وقد ناهز الأربعين أو جـازها بقليل مـثل الإمام النووي والإمام البنا رحمهم الله تعالىٰ.

ولد زمان الملكـية، وعاش فـيها حتىٰ سقطت، وشـهـد ألاعيب الإنجليز في العراق إلىٰ أن حـانت ثورة عبدالكريم قاسم سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م وقد كانت ثورة شيـوعـية حـمراء حـمقـاء، ثم توالت الثورات والحكومـات إلىٰ أن استولىٰ البـعـث علىٰ السلطة سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م وجـاء «أحـمـد حـسن البكر» و«صدَّام»، وفي عهـد البعـث المشؤوم نال «البـدري» الشـهـادة علىٰ يد طواغيت

ذلك الحزب الذي أذاق المسلمين أصنافاً من العذاب.

كان أبوه «عبد اللطيف البدري» من أهل سامراء ومن أسرة منسوبة إلىٰ الحسين بن علي رضي الله عنهما، وحُبب إليه التنقل بين دروس العلماء في المساجد والمدارس والبيوت، وكان يسمع منهم تحسرهم علىٰ قلة من يطلب العلم الشرعي؛ وذلك لأن خطة الإنجليز كانت منصرفة إلىٰ التزهيد في العلم الشرعي وصرف الطلبة عنه، ومن أصر علىٰ دراسته فإنه يعين مدرساً بثلث راتب المهندس والطبيب نكاية فيهم وازدراء لهم، فأحب «عبد اللطيف» أن يكون مِن أبنائه السبعة مَن يدرس العلوم الشرعية فعرض الأمر علىٰ «عبدالعزيز»، وكان آنذاك يدرس في مدرسة متوسطة نظامية فدهش الوالد لاستجابة ابنه السريعة وقبوله الدراسة الشرعية، فانتظم في المدرسة، وكان يفخر بها، فقد نزع سراويله «بنطاله» ولبس العمامة والجبة وصارت هيئته هيئة طلاب العلم الشرعي، وظل يدرس حتىٰ انتهىٰ من الثانوية الشرعية وعُين خطيباً في أحد المساجد، لكنه تنقل بعد ذلك في كثير من مساجد بغداد، وطلب العلم علىٰ مشايخ بغداد منهم: الشيخ «أمجد الزهاوي» و«محمد فؤاد الألوسي و«محمد القزلجي»، وغيرهم.

انضم الشيخ «عبد العزيز البدري» الىٰ جمعية الآداب الإسلامية التي أنشأها العلماء للمحافظة علىٰ آداب الإسلام في العراق، وذلك قبل ظهور الصحوة الإسلامية، فقد كانت البلاد في حالة من الأخلاق العامة يُرثىٰ لها، ثم شارك في جمعية كبار العلماء برئاسة شيخه «أمجد الزهاوي» - وقد ذكرته في هٰذه الحلقات من قبل - لكن لما كانت سنه صغيرة فقد كان مثل المقرر «السكرتير» للجمعية، يكتب بياناتها ببلاغة وفصاحة وجرأة.

وكان يدفع العلماء بجرأته؛ ليتحركوا في بعض القضايا.

• **علاقته بحزب التحرير:**

في زمن الشيخ «عبد العزيز البدري» عظمت قوة حزب التحرير، وكان ينادي بإصلاح الحكام أو إزالتهم لتعود الخلافة الجامعة، وينزل للناس ببيانات جريئة وقوية، فوجد قلوباً مقبلة وآذاناً صاغية، أما الإخوان فكانوا يُعنون بالتربية الهادئة المتدرجة من القاعدة إلىٰ القمة، وما كان لهـٰذا المنهج أن يستهوي رجلاً مملوءاً حماسة وقوة وجرأة مثل «البدري»، بل أستطيع أن أقول: إنه ـ في الجملة ـ ممتلئ تهوراً، فجذبه حزب التحرير حتىٰ صار من أبرز أعضائه بل تولىٰ رئاسته في العراق، وشارك في إدارته مع الشيخ «تقي الدين البنهاني» رئيس الحزب.

لكن سرعان ما تبين له أن «حزب التحرير» تحول إلىٰ حزب يؤثر الكلام والجدل، ومعاركه معارك كلامية فَكَرِهَ منهجهم؛ لأن من طبيعته النشاط والتحرك القوي فانسحب من الحزب سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م وعمره آنذاك حوالي ٢٥ سنة فقط!! لكنه ـ لأدبه ووفائه ـ لم يشأ أن يعلن انسحابه فظل متحملاً تبعات حزب التحرير وبياناته إلىٰ أن قامت ثورة عبد الكريم قاسم الدموية فقدر له الحزب صنيعه، وأعلن أن الشيخ «عبد العزيز البدري» قد انسحب من الحزب.

• **الحركة الإسلامية:**

بعد انسحابه من حزب التحرير أنشأ «البدري» «الحركة الإسلامية» التي كانت تنظيماً سرياً دقيقاً، وأنزل هـٰذا التنظيم بياناً أيام ثورة «عبد الكريم قاسم» عندما اعتدىٰ الشيوعيون علىٰ مكتبة في «الزبير» فأحرقوا أكثر كتبها ومخطوطاتها، وبياناً آخر لما اعتدىٰ الشيوعيون علىٰ جمعية الأستاذين «الصواف» و«الزهاوي» وأحرقوا المكتبة وداسوا المصاحف، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد عرض عليه بعض العسكريين الانتظام في الحركة الإسلامية واشترطوا عليه أن يكونوا معه في القيادة فقط أما التنظيم فينبغي أن يكونوا في تنظيم مستقل، فوافق «البدري» وعمل هـٰذا التنظيم العسكري عدة عمليات أزعجت الشيوعيين، لكن بقي فرعا التنظيم مرتبطين بـ«البدري» وشخصيته القوية وما كان لهما معالم واضحة ولا أثر قوي.

• **من مواقفه:**

ذكر الأستاذ المؤرخ «صادق الجميلي» أنه كان في الخمسينات يعمل في السلك البرقي، فأذاعت وكالات الأنباء في الراديو أن جمال عبد الناصر قد اختارته الماسونية العالمية رئيساً فخرياً لها في الشرق الأوسط، وكان الشعب العراقي آنذاك يحب عبد الناصر، مخدوعاً به، فلم يصدقوا عندما سمعوا النبأ، فدخل الشيخ «البدري» إلىٰ دائرة البرقيات وبيده برقية إلىٰ عبد الناصر تخبره بإذاعة النبأ الخطير من وكالات الأنباء العالمية، وتطلب منه أن يستنكر ذلك النبأ لأن الشعب العراقي لم يصدق ذلك، وقال الأستاذ «صادق»: إنه هو الذي استلم منه البرقية وهي مذيلة بتوقيعات كبار علماء العراق وعلىٰ رأسهم الشيخ «أمجد الزهاوي»، وانتظر العلماء سماع التكذيب لكن مرت أيام وأسابيع ولم يحدث ذلك، ثم ختم بقوله: «والله شهيد علىٰ ما أقول».

• **ومن مواقفه الجميلة:** أنه لما علم بصدور حكم الإعدام علىٰ الأستاذ «سيد قطب» رأس وفداً من علماء أهل السنة وذهب بهم إلىٰ «كربلاء» و«النجف»، وطلب من علمائها التدخل لإيقاف تنفيذ حكم الإعدام، فذكر له «محسن الحكيم» أنه أبرق إلىٰ الرئيس المصري عبد الناصر ألا يعدم «سيّداً».

وأقول: لكن هـٰذا لم يُجْدِ عند الطاغية شيئاً، فرحمة الله تعالىٰ عليهم.

وقد كان الشيعة يعرفون قدره ويحبونه، فعندما سقط نظام «صدَّام» أقام

الشيعة احتفالاً ذكروا فيه مآثره وسيرته الجهادية.

● **جرأة «البدري» الفائقة:**

كان أهم صفات الشيخ «عبد العزيز البدري»: جرأته الفائقة كل الحدود، بل لا أعلم أحداً أجرأ منه منذ سلطان العلماء «العز بن عبد السلام» إلىٰ زمن «البدري»، فقد كان لا يبالي بالموت بل يتعرض له في مظانه، رحمه الله تعالىٰ، وقد قال فيه الدكتور «صالح السامرائي» حفظه الله: إنه رجل لا يعرف الخوف، فمن الدلائل الواضحة علىٰ جرأته: إنَّهُ بعد قيام ثورة عبد الكريم قاسم المرعبة بأسبوع فقط خطب خطبة عصماء كفر فيها الشيوعيين ونَفّر القلوب منهم، فأزعج الشيوعيين حتىٰ أن فاضل المهداوي رئيس محكمة الشعب الهزلية - التي نكلت بالعراقيين وقتلت منهم كثيراً من المظلومين - اشتكىٰ في المحكمة نفسها من «البدري»، فعزم الشيوعيون علىٰ التخلص منه، وكان «البدري» آنذاك يخطب في جامع في الكَرْخ وكان الناس يملؤون المنطقة يوم الجمعة حتىٰ المقاهي فتوجه الشيوعيون إلىٰ المنطقة لينظفوها بزعمهم، فجمع «البدري» الناس، وسلح بعضهم، وكان له سلاح، فهبوا جميعاً لصد الشيوعيين، وكان يتلو عليهم قول الله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وصار يطلق الرصاص علىٰ الشيوعيين فانهزموا كالفئران ولله الحمد، وهٰذه بادرة لم تقع في العالم العربي والإسلامي في التاريخ الحديث، و«البدري» بهٰذا أعاد الهيبة للعلماء والمشايخ الذين استمرأوا الذل طويلاً ورضوا بالهوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

● ومن جرأته: أنه أفتىٰ بكُفر «عبدالكريم قاسم» وحِلِّ دمه!! وهٰذا من الجرأة والشجاعة بمكان لم يصل إليه أحد، وهٰذا الذي أدىٰ بـ«عبدالكريم» إلىٰ

أن يأتي بـ «البدري» ويتلطف معه، لأن الفتوىٰ أحدثت بلبلة في صفوف العراقيين، ثم لما أعدم عبد الكريم بعض الضباط سَيّر «البدري» مظاهرة ضده سار فيها حوالي أربعين ألفاً، ولقبه بـ «**عتل بعد ذلك زنيم**» فأُجبر علىٰ الإقامة في منزله عاماً كاملاً من ٢ ديسمبر ١٩٥٩ إلىٰ ٢ ديسمبر ١٩٦٠م.

● **ومن المواقف الجريئة**: أنه أعلن أنه يريد الحج فلم يؤذن له، فأعلن أن سيحرم من بيته ويتجه إلىٰ الحدود فإن مُنع ذبح دماً للإحصار وأعلن للناس أنه محصور، فاستشار عبدالكريم قاسم بعض علماء السوء فأشاروا عليه ألا يجعل «البدري» يصنع هـٰذا حتىٰ لا يلتف عليه الناس لكن ليأت به ويسترضه ثم يسمح له بالحج، وهكذا صنع «عبد الكريم قاسم» فجاء به واسترضاه وقال له: أنا لا علاقة لي بالشيوعيين وهـٰؤلاء مجرمون وأذن له بالحج، ثم ودعه عند الباب وقال له سأُعنىٰ بأولادك وأعطيهم بعض الهدايا في غيابك، فأمسك «البدري» بكتفي «عبدالكريم» وهزّهما بعنف وقال له: إياك أن تصنع هـٰذا، فأنا لست من العلماء الذين تشتريهم بمالك، وأسمع عبدالكريم كلاماً قاسياً وصعباً، فقال له عبدالكريم: «إنما أردت أن أختبرك»، وذهب ليحج، والتقىٰ بزعماء الدعوة ومشايخ المسلمين هنالك.

● وجاء زمن الرئيس «عبدالسلام عارف»، وبقي الشيخ علىٰ ما هو عليه من جرأة وقوة، حتىٰ أن الرئيس «عبدالسلام» فاجأ «البدري» يوماً وهو يخطب الجمعة بدخوله الجامع، فحوّل «البدري» مجرىٰ الخطبة ليقول صائحاً: يا عبدالسلام: أقم الإسلام، يا عبدالسلام: القومية لا تصلح لنا، يا عبدالسلام، يا عبدالسلام... وظل هكذا يناديه بقوة، ثم بعد الصلاة جاء عبدالسلام ليسلم عليه وقال له: «إنك ذو جرأة وأشكرك علىٰ ذلك»، ثم نُقل من مسجده إلىٰ مسجد آخر وضُيق عليه.

ثم ذهب ليحج سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، وقد أخبرني شيخي وأستاذي الدكتور «محمد علي إبراهيم» أنه كان في المسجد النبوي لما جاء «البدري» للصلاة فيه، فوقف وخطب المصلين خطبة قوية جريئة، وقد كان هـٰذا ديدن «البدري» أينما حلّ، رحمه الله.

● وكان إذا خطب قال في المقدمة: أعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات حكامنا!!

وإذا فرغ دعا قائلاً: اللَّهُمَّ ارزقنا بدولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا من الدعاة إلىٰ طاعتك، والاقتداء إلىٰ سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة وشهادة في سبيلك.

ولما هزم العرب الهزيمة المذلة سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م ذهب إلىٰ المجاهدين في فلسطين ليقاتل معهم لكنهم طلبوا منه العودة إلىٰ العراق وحملوه أمانة القضية الفلسطينية، فعاد.

وخطب بعد الهزيمة خطبة هائلة بكىٰ فيها وأبكىٰ، وخوّن الأنظمة العربية وحملها المسؤولية، وبعد الصلاة أعلن عن تكوين وفد شعبي من سُنَّة وشيعة خرج به إلىٰ ماليزيا وأندونيسيا والهند وباكستان وأفغانستان وإيران وتركيا لشرح أسباب الهزيمة وإلصاقها بالقادة الثوريين، وكان في الوفد الدكتور «صالح السامرائي» و«صالح سريّه» والشيخ «البدري» علىٰ رأسه، في ١٢ رجلاً من رجال العراق، فأحرج الوفد السفراء العرب وغضب بعضهم، وطلبوا من الحكومة العراقية توضيحاً لإذنها للوفد بالسفر وطلبوا معاقبة الوفد، فلما عاد الوفد إلىٰ العراق ضُيِّق علىٰ «البدري».

وقد ذكر الأستاذ الدكتور «صالح السامرائي» - حفظه الله تعالىٰ - في مذكرة كتبها عن رحلته هـٰذه عن «البدري» جملة أمور:

منها: أنه كان يرفض أن يربط حزام المقعد في الطائرة توكلا على الله تعالى وهذا قد لا يوافقه عليه بعض الناس، لكن ذكرت ذلك إيضاحا لطريقته ونهجه.

ومنها: أنَّه كان فى الطائرة معه من بغداد إلى طهران فعرضت إحدى المضيفات الخمر لبيعها فوبخها «البدري» وسائر المضيفين والمضيفات بشدة كبيرة.

وفي إيران: قابل الوفد المرجع الشيعي «شريعة مداري»، فسأل عن أعضاء الوفد الشيعيين ثم أراهم صورة مزعومة للإمام علي ﵁، فكلمه الشيخ «البدري» وحثه على الجهاد والحركة من أجل فلسطين واشتد عليه فحاول الدكتور «صالح» أن يهدئ الشيخ «البدري» فلم يستطع.

ووصف الدكتور «صالح» الشيخ «البدري» بأنه كان يلهب مشاعر الجماهير في كل مكان ذهب إليه الوفد إلا فى إيران وتركيا، فقد حيل بينه وبين الشعب. انتهى ما ذكره الدكتور «صالح»، حفظه الله تعالى.

وجاءت الحكومة العراقية زمن «عبد الرحمن عارف» برجل من كندا اسمه «نديم البيطار» - وكان أحد منظري حزب البعث - وجاؤوا به ليفند مزاعم «البدري» بأن البعثين والناصريين والقوميين هم أسباب الهزيمة، فأراد نديم أن يبين أن الإسلام بأفكاره الغيبية هو السبب!! وألقى محاضرة بهذا المعنى، وأراد إلقاء محاضرة أخرى في النادي الثقافي بـ«حي المنصور»، فطلب «البدري» من الحكومة أحد شيئين: إما أن يسمحوا له بالتعقيب بعد المحاضرة، أو أن يحاضر في مكان آخر يعينه ويعين زمانه، فرفضت الحكومة، فخطب يوم الجمعة وأعلن أنه ذاهب إلى مكان المحاضرة بعد صلاة العصر، فلما صلى العصر اجتمع عليه الناس فأخذ سلاحه وتقدم بهم، وصار الناس ينضمون إليه، وساعدهم على ذلك: جرأته وقوته وشجاعته ورؤيتهم له شاهراً سلاحه

صائحاً منددا، واستطاع أن يدخل قاعة المحاضرة فحدثت فوضىٰ هائلة وهُرِّب البيطار من باب خلفي إلىٰ المطار مباشرةً، وأخفقت الحكومة في تحقيق ما أرادته، وسجنت «البدري» أياماً في سجن المنصور ثم أخرجته، لله درّه.

وقد ذكر لي الدكتور «صالح السامرائي»، أن «صدَّاماً» كان في القاعة آنذاك.

- **تضحياته:**

لا جرم أن «البدري» في شجاعته وقوَّته وجرأته قد لقي من جرأته ما لقي، فقد كاد يقتل مراراً، وسجن أربع عشرة مرة ووضع في الإقامة الجبرية مرات تطول وتقصر، وهٰذا قدر كل من تصدىٰ للظلمة والطغاة وأراد أن يغير بلاده إلىٰ الأفضل والأحسن، وهٰذه مسيرة الأنبياء العظام والمرسلين الكرام وصحبهم منذ فجر التاريخ إلىٰ زمن سيدهم وإمامهم محمد ﷺ ثم هٰذا هو الذي سار عليه الخُلّص من أصحابه رضي الله عنهم ومن اقتفىٰ أثرهم إلىٰ يوم الناس هٰذا، وكل دعوة ليس من ورائها تضحية فهي دعوة ناقصة علىٰ أصحابها مراجعة شأنهم والنظر في أحوالهم.

ومن لطائفه: أنه كان يصحب معه حقيبة فيها حاجاته التي يريدها معه في السجن، فإذا طُلب ليسجن أخذ معه حقيبته.

ولما قامت ثورة البعث سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ذهب ليحج فلما عاد مرّ بالرياض فحذره أصحابه من تضييق البعث علىٰ علماء العراق وطلبوا منه البقاء في الرياض لكنه رفض وبين لهم أنه رمز ولابد أن يعود، فلما عاد قبض عليه البعثيون.

وقد حكى «ابن أحمد البدري» كيف قبض على أبيه البعثيون، فقال:

«عاد والدي من المسجد بعد الفراغ من أداء صلاة العشاء بسيارة صديقه

«عبد الغني شنداله»، فانقض عليه وعلى زميله أزلام عصابة «صدام» الذين كانوا متربصين بهما في الأزقة والشوارع المحيطة بدارنا فاعتقلوهما، وبعد منتصف الليلة نفسها حضروا مرة أخرى فقاموا بتفتيش الدار بشكل عشوائي وهمجي، وصادروا كل أشرطة خطب الجمعة، كما صادروا مخطوطين لكتابين كان قد أكمل تأليفهما معدان للطبع هما: «كتاب الله الخالد» و«الإسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية».

وحقق معه مدير الأمن العام «ناظم كزار» واتهمه بأنه عميل لأمريكا، فقال له «البدري»: بل أنتم عملاء أمريكا فقد فضحكم «علي صالح السعدي»، وقال: إنكم جئتم للحكم على قطار أنجلو-أمريكي، فصفعه ناظم على وجهه، فكانت المفاجأة المذهلة أن الشيخ «البدري» فقز على ناظم وبصق عليه وضربه وهو أعزل وسط المجرمين، فعند ذلك ضُرب بالأسلاك حتى أغمي عليه، ثم عذبوه عذاباً شديداً حتى قتلوه بعد أن كسروا عظامه، ونتفوا الجانب الأيمن من لحيته، ورموا جثته على باب بيته، فلما خرجت زوجه صباحاً لتشتري الخبز وجدت جثة زوجها على الباب وقد مُثِّلَ به تمثيلاً فاحشاً، فأغمي عليها من هول المفاجأة، رحمه الله تعالى وغفر له ورفع درجته في عليين وتقبله في الشهداء الصالحين.

قال ولده «سعد البدري»:

«عرفنا أن والدي في إحدى زنزانات قصر النهاية السيّئ الصيت ويستجوب من قبل «صدام» و«ناظم كزار»، بكل فخر أستطيع أن أباهي بوالدي الذي كان شجاعاً بحق وصبوراً مؤمناً حيث ذكر لنا أحد الشهود الذين كانوا معه في الزنزانة قائلاً: لم أر في حياتي رجلاً بشجاعته داخل المعتقل وهو يعذب ويفقد الوعي، ثم يعود إلى رشده، فيعذب مرة أخرى وهو يكرر ذكر الله، ثم يفقد الوعي تارة أخرى، ويرسل إلى مستشفى الرشيد العسكري لإيقاظه من غيبوبته

ثم يعاد إلى التعذيب وهكذا، وهو يذكر اسم الله تعالى ويقرأ آيات من الذكر الحكيم ويندمج بأدعية مستجابة لنيل الشهادة فينالها في ٢٦/ ٦/ ١٩٦٩م».

وقال الأستاذ المؤرخ صادق الجميلي:

إن أحد أقربائه كانت زنزانته جوار زنزانة الشيخ، فقال: كان معذبوه يمرون عليه فيبصقون نحوه ويقولون: يا جاسوس!! يا خائن!! هـٰذا مصيرك!! فيبصق عليهم ويقول: كل الشعب يعرف أنكم أنتم الجواسيس يا عملاء شركات النفط البريطانية، وأكد له قريبه أنه لم يشاهد أو يسمع في الدنيا مثل هـٰذا الرجل الصلب الصبور، الله أكبر.

ومنع الأمن دفنه في سامراء التي كانت تغلي من قتله بتلك الطريقة، فدفن قرب شيخه «الزهاوي» في مقبرة الأعظمية، فلما دفن حصل هياج شديد في المقبرة، وتألم لحاله كثير من الناس، ورفعت شعارات لم تعجب السلطة الحاكمة فعاقبت بعضهم بالسجن ١٥ عاماً!!

وانتقم الله من «ناظم» هـٰذا فقد حاول الانقلاب على البعث فقتله «صدام» شر قتلة، بعد أن عذبه عذاباً شديداً.

- **من مؤلفاته:**

ألف الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ عدداً من الكتب، منها: «الإسلام بين العلماء والحكام»، وكتاب «حكم الإسلام في الاشتراكية»، وكتاب «الإسلام ضامن للحاجات الأساسية للفرد»، و«كتاب الله الخالد القرآن الكريم».

- **أولاده:**

للشيخ أربعة أبناء وأربع بنات، وتصفه ابنته علياء بأنه كان أباً مثالياً ومربياً وفاضلاً عادلاً لا يفرق بين الابن والبنت، كان يحثنا على أداء الصلاة في أوقاتها وخاصة صلاة الفجر.

وقالت ابنته الكبرى «آلاء»: إننا فقدنا والدنا ونحن في أمس الحاجة إليه، وإلى عطفه وحنانه... وفي اللحظات التي كنا نراه فيها كان يحثنا على حفظ القرآن الكريم ويَعُدُّنا لأن نكون دعاة في المجتمع، والحمد لله أنا وأخواتي الثلاثة نمارس تدريس قواعد اللغة والتعليم والتربية الإسلامية، ونعمل على تحفيظ القرآن الكريم وإلقاء المواعظ الدينية.

وأما زوجه، فقد ماتت في حادث سيارة سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، رحمها الله رحمة واسعة.

• عجيبة:

يذكر ولده «محمد» بأن أحد أفراد الأمن قد أخبره في سنة ٢٠٠٠م عندما كان يبحث ضمن فريق مشترك من الأمن والمخابرات العامة والآثار عن قبر أحد أبناء المتوكل في المقبرة الأعظمية وبجوار قبر الشهيد «البدري»، أنهم عندما حفروا للبحث فُتح قبر الشهيد وانكشف الغطاء عن جثته الطاهرة فضغط على جسده فرآه طرياً وكأنه دفن تواً بعد ٣١ عاماً من استشهاده ودفنه، فدخل الرعب والخوف في قلوبهم فأعادوا التراب إلى مكانه وفروا هاربين.

ومن المناسب أن أذكر هنا حادثة مهمة لها صلة بقضية حفظ جسده الطاهر ذكرها الأستاذ المؤرخ «صادق الجميلي»، فقد قال:

«لما كان الشيخ «البدري» يخطب الجمعة في جامع إسكان غربي بغداد، أخذ يهاجم النظام الحاكم وينتقد أخطاءه بكل جرأة وصراحة من منبر الجمعة، وكان يستقطب الشباب المسلم وأجهزة التسجيل التي كانت يمتلكها البعض منهم تلتقط خطبه النارية وتوزع بينهم... كان يسكن كاتب هذه السطور في «حي القادسية» ووقف في الشارع العام ينتظر سيارة أجرة، فإذا بالشيخ أحد ركاب السيارة التي وقفت فامتطيتها وجلست على كرسي بجانب الشيخ،

فسلمت عليه ودار الحديث بيننا حول خطبة في المسجد فأبديت له نصيحة أن يقلل من حماسه لأننا نعيش في نظام لا يرحم ناقديه، فقال لي: لا يا أخي لا، فأشار إلىٰ زنده الأيسر ومسكه بقوة، وقال: إذن لماذا نُسمِّن هـٰذه الزنود؟ ألتكون طُعْماً للدود في القبور؟!! فسكتُّ».

وقد سقت هـٰذه الحادثة مقترنة بالحادثة التي قبلها لأبين أن الله حفظ زنده وسائر جسده فلم يأكله الدود، ولله الحمد.

● وفي الختام لابد من أن أقول:

ليت الشيخ «البدري» اتفق مع العلماء واجتمع معهم لتكوين جبهة فلربما كان أجدىٰ وأنفع للإسلام، لكنه كان يرد علىٰ العلماء الذين ينصحونه بالتريث رداً خشناً ويتهمهم بشتىٰ أنواع الاتهامات، وكانوا يدخلون عليه في إقامته الجبرية ويطلبون منه الهدوء فكان يصدهم بقوة، وقد ألف كتابه المعروف رداً عليهم واسمه «الإسلام بين العلماء والحكام».

وهـٰذا أدىٰ إلىٰ أن تضعف صلته بالعلماء، أقول هـٰذا وأنا لا أبلغ عُشْره في جرأته وقوته وتضحيته وشجاعته وإقدامه لكني كنت أتمنىٰ هـٰذا حتىٰ يُستفاد من هـٰذا العالم الصادع بالحق الشجاع الجريء الذي لم نر مثله منذ قرون طويلة، رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة، ويكفيه أنه أعاد للمشيخة شيئاً من الهيبة التي فقدت منذ زمان طويل، والله المستعان، فأين مثله اليوم من علماء المسلمين، بل أين عُشْره ـ رحمه الله تعالىٰ ورفع منزلته في أعلىٰ عليين.

* * *







حسن
حَبَنَّكَة
المَيْداني
١٣٢٦ - ١٣٩٨هـ
١٩٠٨ - ١٩٧٨م
الجزء
٦
الرابع

القائد الشعبي
حسن حَبَنَّكَة المَيْداني

في العصر الحديث عشرات الآلاف من العلماء والمشايخ وطلبة العلم، وبعض هٰؤلاء قد بلغ في العلم مبلغاً عظيماً، لكن قليلاً من هٰؤلاء من كانت له عند قومه منزلة وتأثير، وقليل من هٰؤلاء مَن كان له في بلده عمل جليل، ومن هٰؤلاء القلة كان الشيخ «حسن حبنكة الميداني»، رحمه الله تعالىٰ.

ولد في حي الميدان في دمشق سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وهو حي الشجعان وأهل المروءة والفتوّة وأولي القوة، وأبوه هو «حسن بن مرزوق بن عرابي بن غنيم» من عرب «بني خالد» من بادية حماة، أما «حَبَنَّكة» و«الميداني» فهما لقبان له عرفت عائلته باللقب الأول واشتهر هو باللقب الآخر، وكان أبوه «مرزوق» من أهل الصلاح والاستقامة، صاحب محل لبيع المواد الغذائية، وأمه «خديجة» من أصول مصرية أتت لأبيه بأربعة أبناء وبنتين، أكبرهم هو الشيخ «حسن» رحمه الله، وقد توفيت ـ رحمها الله تعالىٰ ـ أثناء عودتها من الحج مع ابنها الشيخ «حسن».

نشأ الشيخ «حسن» في حي الميدان، وتعلم في الكتّاب القراءة والكتابة، وقراءة القرآن العظيم، ثم درس في مدرسة الشيخ شريف اليعقوبي الابتدائية، ثم قرأ بعض العلوم علىٰ الشيخ «طالب هيكل» ثم علىٰ الشيخ «عبدالقادر الأشهب» ثم علىٰ الشيخ «محمود العطار» والشيخ «أمين سويد»، وقرأ العلوم العقلية علىٰ عالم بخاري وآخر كردي، ثم قرأ علىٰ الشيخ المحدث «بدر الدين الحسني»، وتفقه بالمذهب الحنفي ثم درس المذهب الشافعي والتزمه علماً

وتعليماً.

• والتحق الشيخ «حسن» بالشيخ «علي الدقر» - وقد ترجمت له في هٰذه السلسلة التي أرجو أن يبارك الله فيها - وصار من جملة تلاميذه والسائرين على منهجه، وتولى إدارة مدرستين تابعتين للشيخ «عليّ»، وأخلص له في همة منقطعة النظير، وكان هو المقدم بين أصحاب الشيخ علماً وتعليماً وإدارة، وقد جلب له هٰذا الحسد والكيد فوشى به عند الشيخ بعض أتباعه بأن الشيخ «حسناً» يريد الزعامة وينافس الشيخ «علي» واشتد الأمر فما كان من الشيخ «حسن» إلا أن اعتزل مؤسسة الشيخ علي إيثاراً للسلامة لكن الشيخ «حسن» ظل متصلاً به ومتأدباً معه حتى مات الشيخ «علي»، رحمه الله.

ثم إن الشيخ - رحمه الله تعالى - أسس جمعية خاصة به سماها «جمعية التوجيه الإسلامي» سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، وكانت الجمعية تستقبل الطلاب من كل مكان، وتُعنى بهم وتدرسهم مجاناً، بل إنها كانت تهيئ السكن لمن لا سكن له، وبفضل الله استطاعت أن تنشئ مساجد كثيرة في دمشق وتُعنى بالقديم منها وأنشأت مدارس ومعاهد للبنين والبنات، وداراً للقرآن في جامع منجك - الذي كان المقر الرئيس للشيخ «حسن» طوال حياته - وظلت الجمعية معطاءة مدرارة إلى سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م حيث أُلغيت بمراسيم جمهورية وضمت مبانيها إلى وزارة الأوقاف.

• **صفاته:**

كان للشيخ - رحمه الله - صفات جليلة، من أعظمها:

١ - الهمة العالية:

فقد تعلق قلبه بالعلم منذ صغره حتى آخر أيامه، وكان له دروس عديدة تبدأ من قبل صلاة الفجر!! وتستمر عامة النهار وطرفاً من الليل، وكان يلزم

طلابه بالهمة العالية؛ فقد تعلّم على يديه طالب يسمى «إسماعيل الصباغ»، وكان يُلزمه أن يأتيه في وقت محدد في السحر للدراسة، فإذا تأخر بضع دقائق لم يأذن له، وكان هـٰذا الطالب إسماعيل يسكن خارج حي الميدان، فكان يمشي في ظلمة الليل من بيته إلى بيت شيخه ليصل إليه قبل الفجر بساعة، فما أحسن الهمة العالية في الشخص فهي الموصلة له إلى أعلى الدرجات.

ومن دلائل همة الشيخ «حسن»: أنه كان له شيخ اسمه «محمود العطار» وهو فقيه حنفي متمكن من الفقه، فكان يجلس بين يديه على ركبتيه عدة ساعات كل يوم، وكان للشيخ «محمود» رغبة في الخروج إلى البساتين والقرى وحُبب إليه ذلك، فكان الشيخ «حسن» يتبعه من بستان إلى بستان، ومن قرية إلى قرية؛ رغبة في طلب العلم.

وقد ظهرت همة الشيخ العالية في: تصدره للتدريس وإفادة الجمهور؛ فقد كان له درس عام جامع للعامة بعد الفجر إلى الضحى، ثم يفطر مع الطلاب، ثم يدرس كبار الطلاب إلى قُبيل صلاة الظهر، ثم إنه يفرغ لنفسه من الظهر إلى العصر، وبعد العصر بقليل كان له درس إلى أذان المغرب مع كبار طلابه، ثم بعد المغرب يحين وقت الدرس العام الجامع للعامة، وبعد العشاء درس للطلاب الذين لا تسعفهم أحوالهم للدراسة النهارية فيأتون إليه ليلاً، ثم بعد فراغ الدرس يعود إلى بيته، لكنه كان كثيراً ما يحب البقاء في الجامع والبيات فيه ليوقظ طلابه لصلاة الفجر جماعة، ويقوم سحراً للصلاة والدعاء والتسبيح، وربما طالع بعض كتب العلم في ذلك الوقت، هـٰذا عدا عن قضايا المسلمين العامة التي كان تؤرقه وتأتي على الوقت الذي بقي له من يومه وليلته.

وكان له طريقة حسنة في التعليم، وهي: إيقاف الطلاب على مبادئ العلم ومفاتيحه، ويدربهم على استخراج المسائل من مظانها، ومِن ثَمّ يعقد حلقات

للمناقشة، وهـٰذه طريقة فريدة.

وكان يدفع بطلابه إلىٰ التدريس والخطابة وإلقاء المواعظ في المساجد خاصة في رمضان للتدرب علىٰ مواجهة الجهور وإفادتهم.

• وكان يدرب طلابه علىٰ السباحة والفروسية وركوب الخيل، ويسير بهم في القرىٰ والبساتين لتدريبهم علىٰ القوة واحتمال المشاق، وربما بات معهم في المساجد أو البيوت التي يستأجرها لهـٰذا الغرض، وربما باتوا في أرض أو سفح جبل، وفي تلك الرحلات يفيدون أهل القرىٰ بالدروس والمواعظ.

٢ ـ الحكمة:

وقد قال تعالىٰ: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد تجلت حكمته في مداراته للأنظمة الحاكمة في بلاد الشام آنذاك فيما يعود علىٰ البلاد والعباد بالخير، وقد ظهرت حكمته في مواقف، منها يوم اشتدت السلطات البعثية الحاكمة في الشام علىٰ الشعب وضيقت عليه في أمور دينه، فأرادت مجموعات من الشباب أن تعتصم بالجامع الأموي، ووافقهم بعض العلماء علىٰ ذلك، واجتمعوا في المسجد وتوالت الاتصالات من الجامع تستحث الشيخ أن يأتي هو وطلبته، وكان المستحث أحد المشايخ المتعاونين مع الدولة، وجاء مجموعة من المشايخ إلىٰ الشيخ «حسن» في مكانه في جامع «مَنْجك»، وكان منهم الدكتور «محمد أمين المصري» ورجحوا المشاركة واستحثوه ليذهب، فقال لهم:

هل أنتم الذين دبرتم هـٰذا الأمر وأعددتم له عدته؟

هل أنتم الذين بعثتم طلابكم ومريديكم للدعوة إليه؟

قالوا: لا.

فقال لهم: وما يدريكم أنه فخ صنع لكم حتىٰ تُقتلوا أو تأخذكم الدولة بجرم القيام بثورة مسلحة.

أنتم بين خيارين: إما أن أحبسكم عندي هنا في البيت، وإما أن تنصرفوا إلىٰ بيوتكم، ولا أسمح لأحد منكم بالمشاركة في هٰذا الأمر، إن المسلمين بحاجة لكم فلا تمكنوا أعداءكم منكم.

فانصرف العلماء إلىٰ بيوتهم مستجيبين لأمر الشيخ، ووقع ما تفرس فيه الشيخ، فقد هجمت الدولة علىٰ الجامع، وكسرت بابه بدبابة، وقتلت خلقاً كثيراً ممن وجدته فيه في مجزرة شنيعة، واستاقت الباقي لتعذبهم عذاباً مروعاً ثم أعدمت جماعة منهم، وكان يراد استئصال المشايخ وطلبة العلم كلهم، لكن الله نجّاهم بحكمة الشيخ.

ومن الأمثلة على حكمته: رفضه الدعوات المتكررة من سفارة الاتحاد السوفيتي في بيروت لحضور مؤتمر عقدوه للسلام مع أنهم وعدوه بأنه سيسمحون له بالحديث كما يشاء لكنه رفض؛ لأنه يعلم أنهم لن ينشروا له شيئاً، وفي الوقت نفسه سيخدعون كثيراً من الناس بحضوره.

٣ـ التصدر للناس:

كان الشيخ زعيماً للشعب، متصدراً لحل مشكلاتهم، مصلحاً بينهم، مدافعاً عن مظلومهم، مجيباً لمطالبهم، مغيثاً لملهوفهم، مجيباً لدعوة من دعاه من خواص إخوانه وطلابه، ثم إنه كان الموصل لمطالب الشعب إلىٰ الحاكم والوزير والمسؤول، علىٰ أنه كان يخالطهم بعزة العالم المسلم، وكان عدد من رؤساء الجمهورية يزورونه في مسجده وفي غرفته في المسجد ويصلون عنده الجمعة فلم يُثن عليهم قط وإنما كان يصدعهم بالحق وينصحهم ويوجههم، وكذلك الحال إذا اجتمع بهم في حفل عام أو اجتماع فإنه يصدع بالحق في

وجوههم ويريهم عزة العلماء.

• **ومن مواقفه مع حكام المسلمين:** أنه كان في وفد من علماء الشام لتهنئة الملك سعود ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بالحكم، فنصح الملك وحثه علىٰ الاستمساك بالشرع والعمل به، وحثه علىٰ إعادة إعمار سكة حديد الحجاز، وبعد ذلك أهدي له وللعلماء ساعات وعطايا مالية فقبلوا الساعات وردوا المال.

• **وكان له فضل على العلماء والدعاة،** فقد توسط لدىٰ حافظ الأسد لإطلاق الشيخ «سعيد حوىٰ» ففعل، ولإطلاق الشيخ «محمد علي مشعل» فاستجاب لوساطته، وكان الحمىٰ الحقيقي بعد الله ـ تعالىٰ ـ للمشايخ والعلماء في بلاد الشام.

• **وقد كان الشيخ في زمانه يُعد العالم الأول في توجيه الشعب،** ولذلك أحبه الناس والتفوا حوله، لكن مع ذلك لم يكن ينخدع باجتماع عشرات الآلاف من الناس حوله؛ لأنه يعلم أنهم إذا حزبه شيء فلن ينصروه، وهٰذه عادة الجماهير في كل زمان ومكان، ولذلك كانت له مقولة حكيمة قالها لتلميذه الشيخ «حسين خطاب» لما جاءه عشرات الآلاف من الناس لتهنئته بالقدوم من الحج، فقد قال له: يا شيخ حسين: لا تغتر بكل هٰذه الجماهير، فهي كرغوة الصابون، وصدق الشيخ والله.

٤ ـ القوة والشجاعة:

لقد كان من أبرز صفات الشيخ: القوة والشجاعة والإقدام، وعلىٰ ذلك أمثلة عدَّة، فمنها:

لما أراد الاستخراب الفرنسي في سوريا سَنّ قانون الطوائف وفيه تجويز زواج المسلمات باليهود والنصارىٰ وغيرهم من طوائف بلاد الشام قام الشيخ في وجه الاحتلال الفرنسي وبقوة، ونظم مظاهرة كبيرة خرجت من حي الميدان

تريد مبنى رئاسة الوزراء، وضجت الحكومة بها وخافت من عواقبها وطلبت من الشيخ «حسن» إرجاع المتظاهرين ليتسنى للمندوب السامي الفرنسي الاتصال بحكومة بلاده واستشارتها في إلغاء القانون فوافق الشيخ، ثم ألغي القانون بعد ذلك بفضل الله تعالى ثم بفضل قوة الشيخ وإقدامه، ولقد كان شعار المظاهرة: «ديننا لا نبغي به بديلاً، وليسقط قانون الطوائف».

• **ومن الأمثلة أيضاً:** أنه شارك في الثورة ضد الفرنسيين مجاهداً، ولحق بجماعة الشيخ محمد الأشمر الذي كان من أفذاذ المجاهدين وشجعانهم، لكنه لما رأى أن شوكة الفرنسيين قد اشتدت وأنهم قد استقروا في بلاد الشام خرج من بلاده إلى الأردن وأقام فيه حوالي سنتين.

ومن الأمثلة على شجاعته وقوته: أنه صدع بالحق بقوة أمام رئيس الجمهورية الفريق «أمين الحافظ» يوم استدعى العلماء ليوبخهم على وقوفهم ضد قوانين التأميم الاشتراكية التي صدرت سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، وأسمع الرئيس ومعاونيه حكم الإسلام في صنيعهم بقوة وشجاعة بالغة مع أنه كان ينتظر السجن هو ومن معه من العلماء، وكان ذلك في رمضان ومن ثم أعادوهم إلى بيوتهم معززين مكرمين، وبعد أيام صدر المرسوم الجمهوري بعزل الشيخ «حسن» وبعض المشايخ من وظائفهم في الخطابة!!

• **محنته:**

وفي سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م حج الشيخ، وقابل الملك فيصل - رحمهما الله تعالى - في لقاء خاص، ولما عاد أعد له الشعب استقبالاً جليلاً جداً في المطار وفي جامعه وَحيِّه: الميدان، وغاظ هذا الحكومة السورية بزعامة الدكتور «نور الدين الأتاسي»، بل إن السوفييت حذروا السوريين من هذا الشيخ الذي استقبل مثل هذا الاستقبال، فعزمت الحكومة على الإيقاع به فأوعزت إلى

أحد الملاحدة المجرمين أن يكتب مقالاً مسموماً يستهزئ فيه بالله ـ تعالىٰ وجَلّ وعَزّ ـ في مجلة الجيش الرسمية، فإذا قام الشيخ لينكر ويثير الشعب كعادته دُس بين صفوف المتظاهرين عناصر المباحث ليفسدوا المظاهرة ويحيدوا بها عن أهدافها، وحذر جماعة من المشايخ الشيخ «حسن» من الخطبة في جامعه في يوم جمعة خصه الشيخ للحديث عن الموضوع لكنه خطب لمدة ساعة خطبة هائلة تجاوب معه فيها المصلون، ومنع هو وطلابه العناصر المدسوسة من التظاهر ضد الحكومة حتىٰ لا يحدث ما لا يحمد عقباه، وقبضت عليه الشرطة وسُجن في سجن القلعة حيث سجن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعُذب بالسهر المتواصل وتسليط الأضواء الشديدة عليه، وأرادوا قتله لكن الله ـ تعالىٰ ـ نجاه بالنكبة التي نُكبت فيها بلاد الشام في حرب سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م وقررت القيادة إطلاق سراحه، فطلب إطلاق سراح المسجونين بسبب قضيته ـ وهم ألوف ـ فوافقت القيادة وأطلقت الجميع، لكن كانت السلطة قد أصدرت مراسيم بإلغاء جمعيته بعد سجنه وصادرت أملاكها.

• **مناصبه ووظائفه:**

لم يكن الشيخ يحب الوظائف الرسمية، وعلىٰ هٰذا لم يكن يطلبها أو يتشوف إليها، لكن عُهد إليه ببعض الوظائف والمناصب، **فمن ذلك:**

١ ـ **أمانة رابطة العلماء:** كان الشيخ قد اشترك مع بعض العلماء في تأسيس رابطة للعلماء، وقد اختاروا أكبرهم سناً رئيساً لها وهو الشيخ «أبو الخير الميداني»، والشيخ «محمد مكي الكتاني» نائباً للرئيس، والشيخ «حسن حبنكة» أميناً عاماً للرابطة.

وكان للرابطة نشاط جليل، وعمل بارز في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبقيت عشر سنوات ثم ضعفت وانتهىٰ

أمرها .

٢ ـ **عضوية في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، بعد أن فرغ مقعد سوريا** بموت الشيخ «محمد مكي الكتاني» .

٣ ـ **عرض عليه الشيخ «تاج الدين الحسني» يوم كان رئيساً للجمهورية السورية،** منصب مدير عام الأوقاف ، فرفض .

٤ ـ **ونافس في انتخابات تعيين مفتي الشام،** وحصل فيها ضغط حكومي للحيلولة دون وصوله وأُثر على بعض العلماء الناخبين ، ومع كل ذلك لم يسقط إلّا بفارق صوت واحد عن منافسه الذي فاز وهو الشيخ «أحمد كفتارو» .

٥ ـ **وعين له ـ بدون علمه ـ وظيفة عالم في دار الفتوى،** ثم عدلت الوظيفة لتكون باسم مدرس ، ثم عزل عنها بعد أحداث سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م كما فصلتها في مكانها من هٰذه الترجمة .

• **شعره:**

كان للشيخ شعر جيد على أنه لم يكن مكثراً ، فمن شعره :

بني ديني هلموا أنقذونا ... فنار الكفر تلتهم البنينا

وأنتم عاكفون على فسوق ... فكم نشقى وأنتم نائمونا

فتنتم بالذي يفنى سريعاً ... وأغراكم خداع الكافرينا

فعن نهج السداد صرفتمونا ... ومن ثدي الجحود غذوتمونا

وقال أيضاً :

صفق القلب للحجاز وثارا ... شفّه الشوق للحبيب فطارا

واقتفت إثره الجسوم غراما ... فجرى الركب في الرمال وسارا

يا ديار الحبيب يا أنس قلبي ... عدل الدهر في الهوى أو جارا

يا بقـــاع الأنـوار من فـــيض ربـي ... حـــدثيني عن الرســول جِـهــارا
حـــدثيني عن زمـــزم والمُصَلَى ... حـــدثيني فــلا أطيـق اصطبــارا

• **مؤلفاته:**

لم يفرغ الشيخ للتصنيف؛ وإنما كان يقول: أنا أؤلف الرجال، وكان له مؤلف واحد فقط وهو: شرح على نظم «الغاية والتقريب» في الفقه الشافعي.

• **طلابه:**

تتلمذ على يديه مئات من طلاب العلم، وصار بعضهم من العلماء الكبار والمشهورين مثل: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور مصطفى الخن، والدكتور مصطفى البُغا، وشيخ قراء الشام حسين خطاب، وشيخ قراء الشام من بعده محمد كريّم راجح، وابنه الشيخ عبد الرحمن.

• **زوجه:**

تزوج الشيخ وهو في سن الخامسة عشرة من فتاة تصغره بعامين من عائلة السودان الميدانية المعروفة بالتدين، فكان يُعنى بزوجه الصغيرة، ويوقظها ليصليا في ثلث الليل الآخر معاً.

• **أولاده:**

رزقه الله تعالى سبعة أبناء وخمس بنات، ومن أبنائه: الشيخ المشهور صاحب المصنفات المفيدة «عبد الرحمن»، وقد مات من قريب، رحمه الله تعالى.

• **وفاته:**

توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، عقب مرض نزل به، وجَلَطات قلبية انتابته قبل وفاته بثلاث سنوات إلى أن حانت منيته، ووافاه

أجله، وصُلي عليه في جامع بني أمية، وشيع جنازته قرابة ستمائة ألف، وهٰذا لم يكن في دمشق لأحد من العلماء منذ عقود طويلة، رحمه الله تعالىٰ وأعلىٰ درجته في عليين.

• أقوال لعلماء أثنوا على الشيخ:

قال فيه الشيخ أبو الحسن الندوي ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ وكان قد عرفه قديماً ودعاه للذهاب إلىٰ «لكنو» في الهند لحضور احتفال ندوة العلماء بذكرىٰ تأسيسها فوافق الشيخ وارتحل إلىٰ الهند والتقىٰ بالشيخ «أبي الحسن»:

«من نوادر العلماء والمشيخة الذين جمعوا بين الرسوخ في العلم والتضلع من الثروة العلمية المتوارثة والمكتبة الإسلامية الغنية، والاشتغال الدائم بالتدريس وتخريج العلماء والدارسين، وإنشاء المدارس وبناء المساجد، وبين العناية الخاصة بالأوضاع الراهنة في البلاد المهددة أو المتحدية لمستقبل الشعب المسلم السوري الديني».

وقال فيه أيضاً:

«كان الفقيد عالماً ربانياً، وكبقية السلف الصالح في الورع والتُّقَىٰ، والاتصال بالله والثقة الكاملة فيه، والتفاني في سبيله، كما كان آية في الأخلاق الفاضلة والنزاهة والبُعْد عن زخارف الدنيا وشواغلها، قلّما يوجد له نظير في هٰذا الوقت».

وقال فيه الدكتور «عدنان زرزور»:

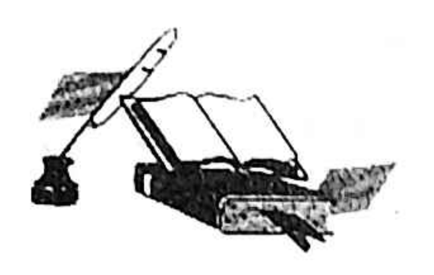
«كان في ساحة العلماء والشيوخ من هو أكبر منه سناً، وربما أغزر مادة في بعض فروع العلم ومسائله الكثيرة، ولكن أحداً منهم لم يكن مهيئاً ليقوم علىٰ الثغرة التي كان يقوم عليها الشيخ «حسن» ـ رحمه الله ـ ولا ليؤدي الدور الكبير الذي كان منوطاً به في ذلك الحين، بحكم الإعداد والتكوين، وبحكم المواهب

والاستعداد».

وقال فيه تلميذه الشيخ «حسين خطاب» شيخ قراء الشام:

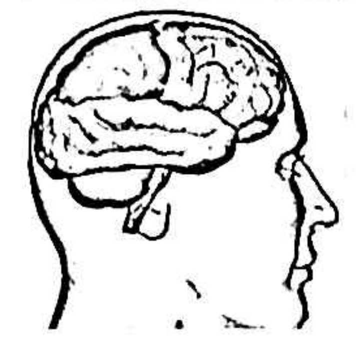
«أمضيت في صحبته وتحت إشرافه وتوجيهه وتعليمه وتأديبه نحواً من خمسين سنة في غدوه ورواحه، وسفره وحضره، وجده وهزله الذي ما كان يخرج فيه على دائرة الحشمة، وفي طعامه وشرابه، وحزنه وفرحه، وألمه وصحته، وسِلْمه ونضاله، فوجدته خير مُرَبٍّ، وخير مُعَلِّمٍ، وخير نَاصِحٍ».

* * *





الفهرس



فهرس الجزء الرابع

الموضوع — الصفحة

* * *

